المجمع 22 (1447/ 2026)، 313-358

الاشتقاق: بين النظريّة اللغويّة والغريزة اللغويّة

سناء جمال أبو صالح[1] ومحمد جواد النوري[2]

Derivation Between Language Theory and the Language Instinct

Sanaa Jamal Abu Saleh & Mohammad Jawad An-Nury

Abstract

This study explores the relationship between modern linguistic theory and the language instinct, linking these perspectives to the contributions of early Arab linguists such as Al-Khalīl ibn Aḥmad al-Farāhīdī and Ibn Jinnī. It shows that Arabic is not merely an arbitrary conventional system but a language with an innate internal structure, reflected in phenomena such as major and greater derivation, root permutation, and letter alternation, revealing a deep linguistic awareness among early Arabs. The work of classical lexicographers in tracing and permuting roots shows that their efforts were grounded in an innate linguistic faculty and a refined phonetic and semantic intuition. Comparing these insights with Chomsky's Universal Grammar (UG) and the Minimalist Program further demonstrates that Arab scholars anticipated concepts such as linguistic innateness, deep and surface structures, and the contextual shaping of meaning. This study also examines Saussure's ideas on the signifier, the signified, and arbitrariness, demonstrating that Arabic blends social convention with natural sound. The meaning-relationship is evident in greater derivation and phonetic proximity.

Furthermore, the study emphasises the role of linguistic reasoning among Arab grammarians, grounded in analogy, transmitted usage, and linguistic taste, as an early form of modern linguistic thought. It affirms the principle of language economy, as seen in deletion and assimilation, which aligns with the Minimalist

[1] باحثة لغويّة، ومدرّسة لغة إنجليزيّة في وزارة المعارف.

[2] جامعة النجاح الوطنية، نابلس، فلسطين.

Program. Within this framework, Jenkins Lyle reinforces the biological view of language, arguing that linguistic ability is a natural, biologically rooted phenomenon embedded in the human brain, with generative grammar serving as strong evidence for this innate endowment. As such, Arabic possesses an internal language instinct, a powerful derivational system, and a coherent phonetic and semantic structure, all of which can be traced from Arabic linguistic heritage to modern linguistic theories.

Keywords: language instinct, language theory, Arabic linguistic heritage, derivation, root permutation, Universal Grammar (UG), Minimalist Program, sound–meaning relationship, language economy, classical Arab grammarians

الملخّص

تتناول هذه الدّراسة العلاقة بين النّظريّة اللغويّة الحديثة والغريزة اللغويّة، وربطهما بما قدّمه اللغويّون العرب القدماء، وعلى رأسهم الخليل بن أحمد الفراهيدي وابن جني. وتنطلق من فكرة أنّ اللغة العربيّة ليست مجرّد نظام اصطلاحي اعتباطي، بل هي لغة ذات بِنية داخليّة فطريّة تتجلّى في ظواهر مثل الاشتقاق الكبير والأكبر، وتقليب الجذور، ومراوحة الحروف، وهي ظواهر تشير إلى وعي لغويّ عميق لدى العرب الأوائل.

تستعرض الدّراسة جهود المعجميّن القدماء في تتبّع الجذور وتقليبها، وتبيّن أنّ هذا العمل لم يكن مجرّد جمع لغوي، بل كان قائمًا على ملكة لغويّة فطريّة وذائقة صوتيّة ومعنويّة. كما تقارن بين هذه الجهود وبين نظريّات تشومسكي حول النّحو الكلّي (UG) والبرنامج الأدنوي، مؤكّدة أنّ العرب سبقوا إلى كثير من مفاهيم الفطريّة اللغويّة، والتّمييز بين البنية العميقة والسطحيّة، وأهميّة السّياق في إنتاج المعنى.

وتتناول الدّراسة أفكار دي سوسير حول الدّال والمدلول والاعتباطيّة، وتبيّن أنّ العربيّة تجمع بين الاتّفاق الاجتماعيّ من جهة، وبين ارتباط اللفظ بالمعنى من جهة أخرى، كما يظهر في الاشتقاقين الكبير والأكبر. وتأتي رؤية جنكنز لايل، التي تؤكّد أنّ اللغة خاصيّة بيولوجيّة فطريّة في الإنسان، وليست مجرّد أداة ثقافيّة مكتسبة. فاللغة، في نظره، جزء من البِنية العصبيّة للدّماغ، ويولد الإنسان مزوّدًا بقدرة داخليّة تمكّنه من اكتسابها تلقائيًا. ويرى لايل أنّ النّحو التّوليدي هو الإطار الأنسب لفهم اللغة من منظور أحيائيّ، لأنّه يكشف عن البنية العقليّة التي تتيح للإنسان إنتاج عدد لا نهائيّ من الجمل.

وتنسجم هذه الرّؤية مع فكرة أنّ اللغة ظاهرة طبيعية تطوّرت بيولوجيًا، وليست نتاج اجتماعيّ وحسب.

وتُبرز الدّراسة دور التّعليل اللغوي عند النّحاة العرب، الذين اعتمدوا على الذائقة اللغوية في السّماع والقياس، معتبرة أنّ هذه العمليّات العقليّة تمثّل شكلًا مبكّرًا من التّفكير اللسانيّ الحديث. وتؤكّد على مفهوم الاقتصاد اللغويّ الذي يظهر في الإيجاز والحذف والإدغام، ما يتقاطع مع مبادئ البرنامج الأدنوي.

وتخلص الدّراسة إلى أنّ العربيّة لغة ذات غريزة داخليّة وطاقة اشتقاقيّة وبنية صوتيّة ومعنويّة متماسكة، وأنّ التّراث العربيّ غنيّ ويوازي النّظريّات اللسانيّة الحديثة، بل ويسبقها في كثير من الأمور.

الكلمات المفتاحية:

الغريزة اللغويّة، النظريّة اللغويّة، التّراث اللغويّ العربيّ، الاشتقاق الكبير والأكبر، تقليب الجذور، النّحو الكّلي(UG) ، البرنامج الأدنويّ، العلاقة بين الصوت والمعنى، الاقتصاد اللغويّ، النّحاة العرب القدماء.

تمهيد

الاشتقاق في اللّغة العربيّة هو آليّة لغويّة، يتم فيها تكوين كلمات جديدة من جذر معين، بمعانٍ مختلفة ومتنوّعة. ويعتمد الاشتقاق على جذر الكلمة، الذي يتكوّن من مجموعة من الحروف، تحمل معنًى أساسيًا، ويتمّ تشكيل الكلمات الجديدة بإضافة الحركات والأحرف المناسبة. ومثال ذلك، اشتقاق الكلمات من الجذر ك.ت.ب. مثل، كاتِب، مَكْتَبَة، كِتابَة، كِتاب، مَكْتَب، إلخ... ويُعدُّ الاشتقاق من الخصائص الفريدة في اللّغة العربيّة، ويسهم في توسيع معجم الكلمات والمفردات، ما يزيد من القدرة التعبيريّة لهذه اللّغة. ولكن في حال تعمّق الدّارس في اللّغة لوجد أنّها تحوي في طيّاتها نظامًا آخر من الاشتقاق؛ وكأنّ شبكة تربط مفردات العربيّة بعضها بعضًا. وهو ما أسماه النّحويون الأوائل، وأهمّهم ابن جنّي، بالاشتقاقين الكبير والأكبر. إذ بإمكان المتحدّث، في سياق كلامه، أنْ يُغايِر فيما بين حروف الجذر ليصل لأكثر من لفظة مترابطة بالمعنى وليست مترادفة. فلو استعمل المتحدّث الجذر ع.ل.ق. بإمكانه التقليب بين الحروف فيحصل على خمس تقليبات إضافيّة وهي؛ ع.ق.ل.، ل.ع.ق.، ل.ق.ع.، ق.ع.ل.، و ق.ل.ع.. وقد

تكون هذه التقاليب مستعملةً بجملتها، وإن لا، قد نجد مضارعةَ حرفٍ آخر من حروف العربيّة بحرف من ذات الجذر السابق. وبكلمات أخرى، قد نستبدل اللام بالنّون أو بالرّاء، والقاف بالهمزة أو بالكاف، والعين بالحاء. وهذه المراوحة والتبديلات بين الحروف هي ما يسمّيها ابن جنّي المضارعة بين أخوات الحروف في اللّغة العربيّة، وهو الاشتقاق الأكبر الذي أشار إليه في خصائصه. ولا بدّ من وسم التّقاليب بالاشتقاق الكبير، حينها.[3]

استلهمت المعاجمُ العربيّة العريقة الفطرةَ في تتبّع مفردات اللّغة. فنرى الخليل بن أحمد الفراهيدي يبدأ معجمه "العين"، بالصّوت الأقصى في جوف الحلق وهو حرف العين. وليحصرَ المفردات، لم يتّخذ تسلسلا أبجديًّا، بل راح يستعمل تقليباتِ كلّ جذر، كما مرّ آنفًا. فاستهلّ الجذر الثّلاثيّ في معجمه بالعين والهاء والقاف، وحدّد أيّ الجذور مستعملة (ع.ه.ق. و ه.ق.ع.) وأيّها مهملة (ع.ق.ه. و ق.ع.ه.). ولَيَبدو واضحًا للقارئ العربيّ الآن، ما آل من اندثار لهذه المفردات. فكلا المفردتين قليلتا الاستعمال في أيامنا هذه. وهذا أمر يسترعي الاهتمام، ومناقشته في قضايا اللّسانيّات الحديثة.

أمّا "معجم مقاييس اللّغة" لأحمد بن فارس بن زكريا القزويني، فقد استعمل الأحرف الأبتثيّة، في الباب الأوّل، مستهلا باب الثّلاثيّ بالهمزة وحرفها الثّاني هو الباء، وجاء الحرف الثّالث مراوحةً في استبدال باقي الحروف، مثل أ.ب.ت.، أ.ب.ث.، أ.ب.د. حتى وصل إلى حرف الياء. ثم تناول الهمزة مع حرف التاء في الباب الثّاني، فوجد قليلا من الجذور التي يمكن توثيقها واعتمادها في الباب، مثل أ.ت.ل. أ.ت.م. وغيرها.

ولا بدّ من التأكيد أنّ الذّائقة اللّغويّة، والحدس اللّغوي المستشري في غريزة هؤلاء اللّغويّن هما الأساس والدّافع وراء هذه التأليفات. ولولا استحواذهم لخاصيّة داخليّة لما تأتّى لهم تأليف هذه المعاجم. فالوازع الداخليّ هو ما حدا بهم للوصول إلى تلك الأفكار اللّغويّة في جمع كلام

[3] في هذه المقالة استعملت الباحثة المصطلحات اللسانيّة التي وردت في كتاب "الخصائص" لابن جني بالذّات، ولم تلجأ إلى المصطلحات اللسانيّة المعاصرة. فالمقصود من وراء مضارعة الحرف بالحرف، والمراوحة بين الحروف، ليس فقط القلب، بل والإبدال بين أخوات الحروف.

العرب. ويؤكّد اللغويّون القدماء أنّ اللغة تسير نحو التيسير والتّخفيف والتّسهيل، في إهمال بعض كلام العرب. فإن كانت الألفاظ مستعملة سائغة فيما مضى، قد يستصعب متحدثو زمان تالٍ لفظها. ولا يغيب عنّا أنّ هذا هو عين الأمر الذي تشير إليه اللسانيّات الحديثة، وتسمّيه بالاقتصاد في اللّفظ تارة، وبالتّطوّر اللّغويّ أطوارًا أخرى.

لن أذهب بعيدًا إلى كتب الفقه العربيّة القديمة في هذه العجالة، بل سأتّخذ من النظريآت الحديثة حجر المحك، في إثبات عروبة العربيّة وأصالتها، بل وحداثتها. فقد أشار شوقي ضيف في مقدّمته لكتاب "الإيضاح في علل النّحو" للزجّاجي، إلى أنّ اللّغة العربيّة تعرّضت إلى حملة رهيبة في مطلع القرن العشرين للقضاء عليها، ومحو خصائصها. فهناك الدّعوة إلى العاميّة من ناحية، والدّعوة إلى الكتابة بالحروف اللاتينيّة من ناحية أخرى. ومن ثَمّ المطالبة بإلغاء الإعراب ونزعه عن مفردات اللّغة. لقد جاءت هذه الدّعوة من الغرب بهدف طمس مآثر العرب، وليست اللغة وحسب. وما نجده من تليد مأثور القدماء، ينمّ عن علّة في استعمال كلام العرب، واستبقاء ذلك الاستعمال.

مقدّمة

دأب الباحث الغربيّ على تهميش، بل وإقصاء خصوصيّات اللّغة العربيّة من علم اللّسانيّات، وكأنّ هذا العلم وُضِعَ لِلُغَةٍ دون غيرها. مع أنّ ما يتّسم به هذا العلم يَحكي جميع أنواع اللّغات. فقد نَدَر ما نجدُه من تطبيقات لسانيّة على اللّسان العربيّ، لأنّ هذا البحث انْصَبّ بكليّته على اللغة الإنجليزيّة بالذّات. فلو حاولنا تقصّي أصول اللّغة الإنجليزيّة لوجدناها مزيجًا من لغات كثيرة. وما كان لهذه اللّغة أن تتطوّر أو تتّسع من غير اندماجها مع باقي اللّغات الأوروبيّة القديمة. وحريّ بالباحث أن ينظر في اللّغات القديمة، وحريّ بالباحث العربيّ أن ينظر إلى لغته ويعطيَها الأوليّة في أبحاثه.[4]

[4] درست الباحثة اللّسانيّات التطبيقيّة خلال دراساتها في اللّغة الانجليزيّة، ولم يكن أمام الدارس أيّ معلومات عن اللغة العربيّة، بينما كانت أمامه الأمثلة التطبيقية عن العبرية والإسبانية بالإضافة للإنجليزيّة.

يفترض تشومسكي أنّ الملكة اللغويّة الفطريّة مسؤولة عن توليد العبارات اللغويّة من بنيات لغويّة عميقة، التي تُعدّ المكوَّن التّركيبيّ الأساسيّ الذي يتكوّن من المكوّن الدِّلالي والمكوّن الصّوتي. وعليه يأتي الافتراض بأنّ نظريّة ابن جني وبِنْيَة المعاجم التي سبقته وعاصرته جاءت لتوثيق الملكة اللّغويّة العربيّة الفطريّة، التي تمثّلت في بنية مركبّة من صوت ودلالة. فالبحث يقدّم أجوبة من اللغويين القدماء عن تساؤلات المحدثين، وما توصّل إليه ابن جني في تفسيراته وتعليلاته عن كنه اللغة العربيّة، وغريزيّة استعمالها، يقدّم خير جواب لتلك التساؤلات.

وكثيرًا ما اتّخذ الباحث الغربيّ مواقف سلبيّة من التراث العربي لإهماله القضايا اللسانيّة. حتى أنّه لام عليه مناقشته بعض القضايا التي صادفت نقد الشّعر القديم. وأهمّ تلك القضايا هي السّليقة اللغويّة، التي أشاد بها الناقد العربيّ القديم وعظّم الشّاعر الجاهليّ لمَلَكَته السّليقيّة تلك. وقد جاء هذا البحث ليناقش أصول الغريزة اللّغويّة السّليقيّة.

تهدف هذه الدّراسة، أولا وأخيرًا، إلى تبيان الغريزة اللغويّة عند النّاطق بها، ليس من خلال الدّراسات اللّسانيّة الحديثة وحسب، بل من خلال تقصّي أعمال النّحاة العرب القدماء إن كان على مستوى المُعجم أو النّحو. وكان لا بدّ من التّنوّر في مستوى المفردة من أصل أو جذر، وسيرورة المعنى في تلك المفردة مما قدّم صورة جليّة لفهم سيرورة الاشتقاق في اللغة العربيّة. والسؤال الذي يطرح نفسه هنا؛ كيف تسنّى لنحاة العرب الأوائل بناء هكذا معاجم؟! ولكن بعد دراسة مستفيضة لما وضعه علم اللّسان الحديث من نظريّات، يبدو للدّارس أنّ هذه المعاجم التّراثيّة تضع أجوبة لتلك النّظريّات، بل والفرضيّات منها. وكان لا بدّ من الإجابة عن الأسئلة الآتية:

- كيف يعمل الاشتقاق الأكبر على اتّساع اللّغة العربيّة؟
- ما هو دور نظريّة ابن جني في التّطوّر الدِّلالي للمفردات؟

وتهدف هذه الدّراسة إلى العمل على مستوى اللفظة، أي الكلمة. فاللسانيّات الحديثة أو الغربيّة أناطت بثقلها على مبنى الجملة وجعلت منها رؤوسًا متكلّمة، فقد أعطت جلّ اهتمامها لمركّبات الجملة وكأنّ اللغة تبدأ من الجملة وحسب. وكان لذكر الألفاظ والكلمات النّزر اليسير

في بحثهم، فأُهْمِلت خواصّ الكلمة التي طالما تحدّث عنها اللغويّون العرب القدماء. مع أنّ أصول النظريّات الحديثة تجد لها متّسعًا ومستراحًا في تطبيقها على الكلمة العربيّة. ويثبت الخوض في غمار اشتقاقات ابن جني اللغويّة، مرونة اللغة العربيّة وسَعَتِها. فالاشتقاق الأكبر يُحْدِثُ مرونة في الأصوات، ما يؤدي إلى سعة اللغة العربيّة ومفرداتها. وقد أظهرت النتائج أنّ اللغة العربيّة تسير وفق نهج أدنويّ تلقائيّ داخليّ، يُستشعر من خلال دراسة الاشتقاق الأكبر، وتمتلك اللغةُ حركةً ذاتية تُحدث تغييرًا داخل المفردة نفسها. واتّضح أنّ نظريّة ابن جني تُقدّم تفسيرًا فطريًّا لسيرورة المعنى، في الربط بين الصّوت والدّلالة، مما يجعلها أساسًا لفهم التطوّر الدِّلالي في اللغة، ما يقدّم متّسعًا للغريزة اللغويّة العربيّة في استعمال الجذور، ولا محدوديّة المفردات. وهذا التوجّه يعكس قناعة الباحثة، أنّ اللغة العربيّة قادرة على تفسير بنيتها وتطورّها من داخلها، من خلال أدواتها وخصائصها التّراثيّة واللسانيّة الأصيلة، دون الاعتماد على نماذج لغويّة، أو أدوات تحليليّة خارجيّةً.

ومع أنّه لا يمكن فصل العربيّة عن غيرها ممّا جاورها من اللغات، فقد توصّل البحث في هذه الدّراسة إلى وجود حركة ذاتيّة للغة تعمل على ذلك التغيير، أو التّحوير اللغوي في المفردة ذاتها. إلا أنّ الباحثين قارنوها مع ما جاورها من لغات كالآراميّة، والأكاديّة، والعبريّة، والحبشيّة. فعندما يبحث دارس اللسانيّات في ظاهرة ما أو لفظة بعينها، يلجأ للّغات المجاورة. إلا أنّ هذا البحث لم يتجاوز العربيّة إلى غيرها من لغات، بل بقيَ في خضم العربيّة، بفصيحها وعاميّتها، وفي تجاور لفظة مع أخرى. وبكلمات أخرى، اللجوء للعربيّة لإثبات العربيّة؛ عربيّة العربيّة.

ويؤكّد البحث أنّ التّراث العربي يحتوي على إجابات مبكّرة لكثير من الأسئلة التي يطرحها علم اللسانيّات الحديث. وقد اتّضح من نتائج البحث أنّه بالإمكان القول إنّ اللغة العربيّة تسير على نهج أدنوي تلقائي خاص بها، لا يشعر به المتكلم، إلا أنّ الباحث يستنبط ذلك النّهج ويستشعره في حال تعرّف على أصول الاشتقاق في اللغة العربيّة. لذلك كان لا بدّ من التّعرف على النّظريات التي أثرى نوعم تشومسكي علمَ اللسانيّات بها؛ وأهمّها البرنامج الأدنوي

(minimalist program) للغة بشكل عام والنّحو الكلّي[5] (UG: universal grammar) عند الطفل، وأهميّته في نشوء اللغة عند الإنسان أيًّا كان. ويؤكّد البحث أنّ كتب النّحاة العرب لا تبتعد عن أحيائيّة اللغة التي ينادي بها العلم حديثًا، فقد تعاملوا مع الفطرة والسّليقة بشكلٍ واضحٍ في وراثة الملكة اللغويّة عند بعض القبائل العربيّة، فلم يخلُ فخذ من قبيلة هذيل، على سبيل المثال، من شاعر أو اثنين. فكما ورثوا سمرة الباديّة استورثوا مَلَكَة اللغة وسليقيّتها.

وأخيرًا لا بدّ من التّأكيد أنّ هذا البحث تناول عدة قضايا متداخلة، كان من الصّعب فصلها عن بعضها، لما بينها من وشائج متداخلة. وهذه القضايا هي: اللسانيّات الحديثة، وأوائل النّحاة العرب، والغريزة اللغويّة، ومنزلة الاشتقاق منها. وقد تتكرّر ذات الفكرة في أكثر من قضيّة، وقد يشتّ البحث عن إحدى هذه القضايا ويلتصق بقضيّة دون أخرى، مما يوحي ببعد موضوع البحث عن الكتابة، مع أنّ جميعها تخدم القضايا المذكورة أعلاه.

لا بدّ من الإشارة إلى أننا أمام شبكة من المعايير المترابطة مع بعضها بعضًا من حيث العمل، ونتيجة العمل. فاللغة كينونة واحدة، لا تصل إلى منتهىً واحد فحسب، بل يمكن اعتبارها لا متناهية. فهي ضفيرة (language plexus) يرتبط أولُها بآخرها، بوشائج غير مرئية وغير متناهية، لا يستطيع المتكلم أن يستحوذ كنهها، لأنها تَسير في النّفْس مجرى النَّفَس، بل ومجرى الرّوح. كلٌّ حسب حِلْيَتِهِ التي نُشِّئ عليها. فالقضايا التالية؛ النظريّة اللغويّة، ومن الغريزة اللغويّة حتى الذّائقة اللغويّة، ومن المبادئ والمعايير إلى الخصائص والمعايير، والتّعليل اللّغوي، والاقتصاد في اللغة، جاءت بمعظمها من اللسانيّات التّداوليّة. أما هذه القضايا؛ من حب الأشجار إلى شجر الدّر، وسلسلة فيبوناتشي التي تبدو في اللغة وسعة اللغة العربيّة، كواركات اللغة، من نظريّة الأوتار إلى ثنائيّات التّناظر واللاتناظر، والاشتقاق اللغوي، فقد حضرت مع اللسانيّات التي تؤكّد أحيائيّة اللغة. مع العلم أنّ مصطلحي التّعليل والاشتقاق وردا في كتب اللغة العربيّة القديمة.

[5] وبعض الكتب تترجمها بالنّحو العام أو النّحو الكونيّ أو النّحو التوليديّ بناءً على التسميّة الأولى generative grammar.

النظريّة اللغويّة

مرّت النّظريّة اللغويّة بأطوار من البحث الخاص بها. فكانت هناك النّظريّة السّلوكية، التي أشارت إلى أنّ البيئة هي العنصر الكفيل في نمو اللغة وتطوّرها، وهناك النّظريّة التي تشير إلى أنّ الدّماغ يعمل كالحاسوب في أخذ المعطيات واستيعابها ومن ثم تحليلها. ثم تناول البحث محاضرات فرديناند دي سوسير في علم اللغة.

فلو ابتدأنا الحديث عن اعتباطية اللغة بين الدال والمدلول، التي تحدّث عنها دي سوسير وبحثنا في أصولها في اللغة العربيّة، لقبلناها من ناحية، ورفضناها من ناحية أخرى. ففي كلا الأمرين تتكوّن المفردة وِفق اتّفاق اجتماعي. وفي عودة إلى كتب التّراث التي لازمت اللغة العربيّة، نجد أنها لم تبتعد عن هذه المقولة في قولهم "هكذا قالت العرب". إلا أنّ العربيّة تعطي أهميّة لمبنى اللفظة ومعناها. وجعلت ذلك واضحًا في متن كتبها. وخير دليل على ذلك، الفصول التي وردت في متن كتاب "الخصائص" لابن جني. فهناك عدة أبواب تناولت هذه القضية، ولسان حالها ينوّه إلى أنّ ألفاظ العربيّة غير اعتباطية. وعلى سبيل المثال، وبهدف القصر وليس الحصر؛ فالباب الذي تناول الاشتقاق الأكبر يجعل من المعاني تمسك برقاب بعضها بعضًا. فيكفي الناطق أن يعرف مفردة سابقة تعينه على فهم مفردة جديدة مشابهة. فتقاليب الجذر ج.ب.ر. السّتّة تفيد معانٍ متقاربة مُتَقاوِدَة تفيد القوة والشدة (ابن جني، 2008، 137).

وفي "باب تصاقب الألفاظ وإمساس المعاني"، يشير ابن جني إلى أن هذا الأمر غير الاشتقاق الأكبر، حيث تتقارب الحروف لتقارب المعاني. ويقدّم ابن جنّي الآية (83) من سورة مريم {**أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا**}. ومعنى تؤزّهم أزّا تزعجهم وتقلقهم، ويؤكّد ابن جني أنّ اللفظة جاءت من "تهزّهم هزًّا"، لأن الهمزة أخت الهاء، إلا أنّ الهمزة أقوى من الهاء، لذلك فلفظة الأزّ أقوى من الهزّ (ابن جني، 2008، 148/2)، والباب الأخير هو "باب في إمساس الألفاظ أشباه المعاني"، فهناك بعض المباني في اللغة تدلّ على الاضطراب والحركة مثل النقزان، والغثيان، والغليان. أو المصادر الرّباعيّة المضعّفة التي تدلّ على التكرير مثل الزّعزعة،

والقلقلة، والصّلصلة، والقعقعة، والجرجرة، والقرقرة. والتّكرير مثل كسّر، وقطّع، وفتّح، وغلّق، فقوّة اللفظ تقابل قوّة الفعل (ابن جني، 2008، 155/2).

أمّا بالنسبة للتّمييز بين اللغة (langue) والكلام (parole)، فقد عالج سوسير ذلك النّظام الجماعي للقواعد المشتركة بين المتحدثين، أي اللغة بعينها، وعالج، من ناحية أخرى، الكلام أو السّياق (parole) أي الاستخدام الفردي للغة في مواقف الحياة اليوميّة. وقد ساعد هذا التمييز في فصل البِنْية عن الأداء، وبرزت اللغة كظاهرة اجتماعيّة، في نظام اجتماعي يُكتسب ويُمارس داخل الجماعة، وليست ملكًا للفرد. ففي اوّل كتاب لأصول اللغة العربيّة، أي "الكتاب" لسيبويه، نراه يؤكّد، في متن كتابه، على أهميّة السّياق في الكلام، وسيرورة المفردة في اللغة. ويقدّم سيبويه أمثلة عينيّة من حياة النّاس في السّوق، فتأتي اللغة مفهومة ضمنًا، من غير تكرار للمرادفات، ومع تمام فهم المعنى وإدراكه. ومثال ذلك، قولنا "بايعته يدًا بيدٍ"، ولا يجوز القول "بايعتُه يداً"، لأنَّ القائل يقصد بقوله أخَذَ منّي وأعطاني (سيبويه، 1982، 392/1).. فالسّياق (parole) يشير إلى وجود عَمَلَيْن في آن واحد. ففي متن "الكتاب" نرى سيبويه يقدّم خصائص اللغة من نصبٍ، ورفعٍ، وجرٍّ وجزمٍ من ناحية، ويقدّم السّياق اليومي لتلك اللغة، من ناحية أخرى. وما يجمل القول هنا، مقولة ابن جني "حدُّ اللغةِ أصواتٌ يعبّر بها كلُّ قومٍ عن أغراضهم" (ابن جني، 1952، 34/1). إذ يشير إلى أهميّة السّياق في الحدث اللغوي في قوله "ليس المخبر كالمعاين"، وذلك لأهميّة شرح أحوال الخبر أو الحدث اللغوي والقرائن المتعلّقة به (ابن جني 2008، 308/1).

وميّز سوسير بين شكلين لدراسة اللغة؛ فالأوّل سانكروني (synchrony)، أي دراسة اللغة في لحظة، أو فترة زمنيّة معيّنة، فيكون التّحليل ثابتًا عن تلك الفترة الزمنيّة. أما الثّاني الدّياكروني (diachronic)، فيعني دراسة تطوّر اللغة عبر الزمان، وهو التّحليل المرتبط بالتّسلسل التّاريخي. ولا بدّ من التّنويه هنا، أنّ العرب لجأوا إلى هذا الموضوع في معالجة غريب اللغة في القرآن الكريم. فلجأ المفسّرون إلى أشعار ما قبل الإسلام لفهم لفظة ما، والتّأكّد من معناها. كما ناقش العلماء كيفيّة تغيُّر المفردة، وتوسُّع دلالتها مع ظهور الإسلام. فالمصادر تشير إلى أنّ العرب لجأت إلى قديم اللغة لتفسير ظواهر لغويّة طارئة. وخير دليل على ذلك، ما قام به

عبد الله بن عباس (ت 68هـ)، فقد رجع للشّعر الجاهلي لتفسير لفظة، أو تعبير ورد في القرآن الكريم، أو في الحديث النبوي الشّريف. وجملته الشّهيرة: "إذا سألتموني عن غريب القرآن، فالتمسوه في الشّعر فإنّه ديوان العرب"، تثبت الثّنائية اللغويّة (diachronic) في تفسير الظّاهرة اللغويّة واستقصائها في فترات سابقة، عبر الزّمان (بعلبكي، 2020، 70).

الأمر الآخر الذي تحدّث عنه سوسير هو فكرة العلامة اللغويّة التي تساوي الدّال مع إضافة المدلول. أي أنّ العلامة اللغويّة تتكوّن من عنصرين؛ الدّال وهو الشّكل الصوتي، أو رسم الكلمة من ناحية، والمدلول هو الفكرة، أو المعنى المرتبط بها، من ناحية أخرى. والعلاقة بينهما اعتباطيّة لكنها ثابتة داخل المجتمع اللغوي. فالمثال الذي يقدّمه الخليل بن أحمد في كتاب "العين" لخير دليل على هذه الثّلاثيّة اللغويّة: " قال الخليل: بل الفَمُ أصلُه فَوَهٌ كما ترى والجمع أفواه، والفعل فاهَ يَفُوهُ فَوْها، إذا فَتَحَ فَمَهُ للكلام" (الفراهيدي، د.ت.، 50/1). العلامة اللغويّة هنا هي الفم، والدّال هنا اللفظ وهو الفاء والميم، الذي تَحوّر من الفَوَهِ، والمدلول هو شكل ذلك الفمّ الذي ينفتح عند الكلام.

لا بدّ من التّأكيد أنّ آراء الخليل جاءت سابقة لكثير من آراء علماء اللسانيّات الحديثة. ويؤكّد الخليل أنّ غاية الدّرس اللغويّ تتمثّل في اكتشاف حكمة واضع اللغة، أو واضعيها. فهذه الفكرة ليست حكرًا على فرديناند دي سوسير، بل يمكن اعتبارها من لدن الخليل بن أحمد (العبيدي، 1999، 108) ولم يختلف كلام الخليل وسيبويه عن حديث سوسير بأنّ اللغةَ منظومةٌ أو جهازٌ يتطوّر من تلقاء نفسه، وهو نتاج الفكر الجماعيّ للمجموعات اللغويّة، ففي أقوال سيبويه عبارات كثيرة موحية بدور الجماعة، مثل؛ كرهوا، واسْتَخَفُّوا، واستثقلوا وغيرها (العبيدي، 1999، 134).

وبعد هذه النظريّات جاءت أفكار تشومسكي في أنّ اللغة تعوز عناصر ثلاثة لوجودها، وكان أوّلها، العنصر الوراثيّ، أي أنّ اللغة صفة وراثيّة، تحتاج إلى البيئة، وهي العنصر الثّاني، الذي يُحفّز ويُنشّط هذه الصّفة من خلال تجارب الفرد. أمّا العنصر الثّالث، فهو تلك العوامل، التي لا تتعلّق باللغة، وإنّما بتحليل معطيات اكتساب اللغة. فحسب رأيه، يولد الإنسان مزوّدًا بجهاز

لغويّ فطريّ (LAD: language acquisition device) يمكّنه من اكتساب اللغة تلقائيًّا، دون تعليم مباشر. وهذا الجهاز مبرمج داخليًّا لاستيعاب قواعد اللغة. أي أنّ اللغة صفة فطريّة بيولوجيّة.

ويشير بعلبكي أنّ العلاقة بين المعجم والنّحو علاقة تكاملية؛ إذ لا يمكن فصل أحدهما عن الآخر، لما بينهما من جوانب مشتركة (بعلبكي، 2020، 99). وهذا ما يبدو واضحًا في اقتراح تشومسكي في أنّ جميع لغات العالم تشترك في بنية عميقة واحدة، وأنّ الاختلافات بين اللغات سطحيّة فقط. وهذا ما يُعرف بالنّحو الكلّي، وهو ما يجعل الطفل قادرًا على تعلّم أيّ لغة يتعرّض لها في بيئته (Chomsky, 1965, p. 26). وفي المقابل، يرفض ما لم تقبله ذائقته اللغويّة التي فُطر عليها. وهذا ما أسهب فيها نحاة العرب الأوائل، مثل الخليل بن أحمد، وسيبويه، وابن دريد، وغيرهم. فهناك بعض الأبواب التي تتناول هذه القضايا في متن كتبهم (بعلبكي، 2020، 54).

بداية، اللغة لا تُعلَّم، بل تُكتسب. فالطّفل لا يحتاج إلى تصحيح مستمر، أو شرح قواعد، بل يكوّن قواعده الخاصّة من خلال المدخلات اللغويّة المحدودة التي يسمعها، ويطوّرها داخليًّا. ويؤمن تشومسكي أنّ الإنسان قادر على إنتاج عدد لا نهائي من الجمل التي لم يسمعها من قبل، وهذا ما يميّز اللغة البشريّة عن أنظمة التّواصل الأخرى (Chomsky, 1965, p. 15). ولا يختلف شأن العربيّة عن غيرها من لغات العالم. فنرى ابن جني يكثر من الملاحظات التي تشير إلى حاجة المتكلّم الأوليّة في التّواصل مع الأخرين. وجاءت تعليلات ابن جني عن وعي في لطف المقاصد، والانحرافات في اللغة، والتلفّت، والتّثنّي.[6] فالتّلفّت في الكلام هو من باب التّأنّق فيه، والتّفنّن في الخطاب. أما تعليلات التّثنّي فتأتي للحمل على معنى التّثنية التي تُستخدم لأغراض بلاغيّة في الشّعر، وليست فقط عدديّة (ابن جني، 2008، 399/2).

[6] التّلفّت والتّثنّي من أساليب الخطاب البلاغيّة. فالأول يشير إلى الانتقال من ضمير إلى آخر في الكلام، والثّاني يقود إلى استعمال المثنّى بهدف إضفاء صِبغة جماليّة على الشعر خاصة. كما في بيت الشعر لامرئ القيس:

قِفا نبكِ من ذكرى حبيبٍ ومنزِلِ بِسِقطِ اللِّوى بين الدَّخولِ فحَوْملِ

وهذه التّعليلات لا تشي بمحاسن العربيّة وجماليّة الصّنعة في الشّعر وحسب، بل تشي بأهميّة التّواصل (مشبال، 2007، 52). ففي حديث ابن جني عن الحذف في باب "شجاعة العربيّة"، يشير دائما إلى أنّ حذف الموصوف يتمّ متى ما قام الدّليل عليه أو شهدت الحال به (ابن جني، 2008، 350/2) ويستمرّ في الإشارة إلى أهميّة غرض المتكلّم في حذف المميَّز أو الحال من الكلام (ابن جني، 2008، 361/2). وهذا دليل على أهميّة القصديّة في تعليلات ابن جني ومن سبقه ولحقه من علماء اللغة العربيّة.

وبالنّسبة لنشأة اللغة عند الإنسان وغريزيّتها، بدايةً، يرى تشومسكي أنّ اللغة ظهرت فجأة كطفرة بيولوجيّة في تاريخ الإنسان، وقد تكون مرتبطة بتغيّر في بنية الدّماغ أو الجينات. وليس عبر تطوّر تدريجيّ، أو انتقاء طبيعيّ كما أشار ستيفن بنكر (2016). وهنا نعزو هذه الأمور لأسرار اللغات جميعًا، فليس بمقدور الإنسان الإحاطة بجميع حيثيّات اللغة. الأمر الذي أشار إليه Owens, Jonathan (2006)، فاللغة العربيّة ما تزال تحمل أسرارًا، لم يصل إليها البحث حتى الآن (Owens, 2006, 269). وهذا ما يؤكّده ابن جني؛ فاللغة "لا يكاد يُعلم بُعدها ولا يُحاط بقاصيها" (ابن جني، 2008، 186/2). لذلك فاللغة العربيّة بحاجة لمن يفقهها، ويُحسن تأويلها من غير تعسّف أو مغالاة. ولا يستطيع ذلك إلا فقيه النّفس، ناصع الفكر (مشبال، 2007، 49).

وثانيًا، هناك نظريّة "الغريزة اللغويّة" التي نادى بها ستيفن بنكر (2016). وقد دعمت فكرة أنّ اللغة ليست مهارة مكتسبة بالكامل، بل هي قدرة فطريّة بيولوجيّة مزروعة في الدّماغ البشري. وليست اللغة اختراعًا ثقافيًّا، بل هي مثل المشي، والرّؤية، فهي قدرة تطوّرت بيولوجيًا لدى الإنسان. ويشبّه بنكر هذه القدرة بسلوك العنكبوت في نسج شبكته، أو حيوان القندس في بناء سدّه في الماء. وهي ذات الفكرة التي نجدها في الفكر الإسلاميّ بطرح مختلف نسبيًّا. فالعقل هو غريزة يعيها الإنسان في ذاته بإرادة من الله، وبالأخذ منه، وذلك من خلال فهم بيان الله إلى الناس. فالعقل هو فهم البيان، ويستوي فيه أهل الهدى وأهل الضلالة (الجابري، 2002، 275).

هذه الفكرة، أي الغريزة اللغويّة، لا تبتعد عن الفكرة العربيّة، التي تؤكّد أنّ العقل يطلق على أربعة معانٍ. فالأوّل هو ما يفترق عن سائر البهائم، وهو الغريزة التي يُتهيّأ بها إدراك العلوم النّظريّة، وكأنّه نور يقذف في القلب لإدراك الأشياء، فنسبة القلب لغريزة العقل كنسبة العين لغريزة الرّؤية. أما المعنى الثّاني، فهو تلك العلوم التي تخرج في ذات الطّفل من جوازات ومستحيلات، مثال استحالة كون الواحد في مكانين، وكون الواحد أقلّ من الإثنين. وبالنّسبة للمعنى الثّالث، فهو تلك العلوم التي تُستدلّ بالتّجارب، فمن حنّكته التّجارب يدعى عاقلا. أما المعنى الأخير، فهو غريزة العقل التي تقمع وتقهر الشّهوة الدّاعية إلى اللذة، فيكون إقدام وإحجام صاحبها بحسب ما يقتضيه النّظر في العواقب، لا بحكم الشّهوة. وهنا يؤكّد الغزالي على طبع الإنسان الذي يولد معه، من ناحية، ومن ناحية أخرى نرى أنّ المعنيين الأخيرين تحصّلا لدى الإنسان بالاكتساب (الغزالي، د.ت، 80). وليست اللغة سوى جزء لا يتجزّأ من ذلك العقل.

ويؤكّد بنكر (2000) أنّ الأطفال لا يتعلّمون اللغة بالطّريقة التّقليديّة، بل يولدون مع قدرة داخليّة على اكتسابها، حتى في بيئات لغويّة فقيرة، أو غير منظّمة. ودليل ذلك؛ الأطفال الصّمّ الذين يخترعون لغات إشارة خاصّة بهم دون تعليم رسمي. لذلك، يدعم بنكر فكرة النّحو الكلّي (UG: universal grammar) التي طرحها نوعم تشومسكي، والتي تفترض أنّ جميع اللغات تشترك في بنية عميقة واحدة، وأنّ الدّماغ البشري مبرمج للتّعامل مع هذه البِنية. ومع أنّ اللغة تطوّرت كتكيّف بيولوجي للتّواصل داخل المجتمعات البشريّة، إلا أنّها نتاج للانتخاب الطّبيعي، وليست مجرّد أداة اجتماعيّة.

ففي اللسانيّات الأحيائيّة، يقدّم جنكنز لايل (2016) رؤية عميقة حول العلاقة بين اللغة والبيولوجيا، ويُعدّ من أبرز المدافعين عن فكرة أن اللغة خاصيّة فطريّة بيولوجيّة في الإنسان، وليست مجرّد أداة ثقافيّة مكتسبة. ويرى أنّ اللغة جزء من التّركيب البيولوجي للدّماغ البشريّ، وليست مجرّد مهارة اجتماعيّة. فالإنسان يولد مزوّدًا بقدرة داخليّة على اكتساب اللغة، ما يتوافق مع نظريّة النّحو التّوليدي، التي طرحها نوعم تشومسكي. لذلك نراه يؤكد أنّ النّحو

التّوليديّ هو الإطار الأنسب لفهم اللغة من منظور بيولوجي، إذ يركّز على البِنْية العقليّة، التي تمكّن الإنسان من إنتاج وفهم عدد لا نهائي من الجمل.

ولا بدّ من الإشارة إلى أنّ البحث الاستشراقيّ، كان قد أكّد على أنّ النّحو العربيّ جاء متأثرًا بالحضارات المجاورة، الأمر الذي دحضه بعلبكي من خلال تقصّي كتب التّراث، التي لا تحوي أي ذكر لأي نحو أجنبي. ويشير إلى أنّه من المتعذّر إثبات أي وجود لتأثير خارجي في نشأة المعجم والنّحو العربيين (بعلبكي، 2020، 96). إلا أنّه هنالك بعض البوادر التي تشير إلى تأثّر اللسانيّات التّوليديّة بالتراث العربي التّليد. ويثبت نعمان بوقرّة (2003) أنّ نوعم تشومسكي تأثّر بالنّحو العربي، فقد درس "المقدّمة الأجُرُّومية" مع أستاذه فرانز روزنطال في جامعة بنسلفانيا. وهذه المقدّمة عبارة عن كتاب في علم النّحو ألّفه محمد بن آجرّوم، ابتدأه بالكلام عن الكلام وأنواعه وتسلسَلَ في المواضيع بأسلوبٍ سلس مبتكر (بوقرة، 2003، 130).

تحدّث شوقي ضيف (1968) عن الأمور اللغويّة التي استساغها ابن جني من الفقه الحنفيّ، الأمر الذي أشار إليه في متن خصائصه. ومن تلك الأمور قاعدة الاستحسان على بعض الأبنية اللغويّة، والحمل على الظّاهر، وغلبة الفروع على الأصول. ومن ناحية أخرى يستعير من المتكلّمين حديثهم عن السّبب والمسبّب، والمستحيل. وذلك لتأثُّره بأصول الفقهاء والمتكلمين جميعا (ضيف، 1968، 268). أي أنّ النظريّة اللغويّة عند العرب جاءت متأثّرة بالتّفاسير وبالعلوم القرآنيّة، وجاء إرساء علم اللغة من خلال المداخلات القرآنيّة. ولم تأت نظريّتهم من قبيل تأثُّر لا بالرومان، ولا باليونان، ولا بغيرهم.

من الذّائقة اللغويّة حتّى الغريزة اللغويّة

لقد اتّضح في هذه الدّراسة أنّ البحث اللسانيّ الحديث حوْل طبيعة اللغة، يؤكّد أحيائيّة اللغة، وما تقدمه الشّواهد القرآنيّة تؤكّد ذلك، فاللغة خلقت من عنده تعالى كما خلق الله الأسماع والأبصار، والنّحو التوليدي أو العام منوط بهذه الموهبة الإلهية التي حبا اللهُ الإنسانَ بها. وفي القرآن توجد الفطرة التي نشأ عليها الإنسان، ولسانه المُبين الذي خُلق عليه، والله هو من علّم الإنسان بالقلم. فالعلم في كلّ شيء من عنده تعالى.

فالآيات القرآنيّة تثبت أنّ السّمع منوط بالنّطق، لأن من لم يسمع لا يتكلّم، وإذا وجدت حاسّة السّمع وجد النّطق (الطبري، د.ت، 275). ومن تلك الآيات ما ورد في سورة الإسراء الآية 36، {إنّ السّمْعَ والبَصَرَ وَالفُؤادَ كُلّ أولئِكَ كَانَ عَنْهُ مسئولا}. فالدّليل على أهميّة السّمع والبصر يكمن في حاجة الطّفل للاختلاط بمن حوله. فيدرك البيئة من خلال السّمع، والإبْصار، والعقل، والفؤاد. وهذه أدوات للتّمييز بين الشيء وضدّه؛ من حُسْن وقُبح، ومن صلاح وضلال. فنظام هذه الأدوات وتنظيمها يتّجه نحو السّلوك البشري لا إلى الطّبيعة وظواهرها. وهذا ما يؤكّده الجابري (2002)؛ فقد ورد العقل والقلب في القرآن بمعنى واحد، وهو الفهم والتدبّر، إلا أنّ العقل ورد في القرآن على الغالب للتمييز بين الخير والشر، وبين الهداية والضلال، من ناحية. ومن ناحية أخرى يرتبط العقل بالذّات وحالاتها الوجدانيّة وأحكامها القِيَمِيَّة (الجابري، 2002، 31). ولا بدّ من التأكيد على أنّ البحث عن دلائل الإعجاز في القرآن الكريم، كان وجهًا من البحث في دلائل الحكمة والعبقريّة في اللغة العربيّة، وشرف قيمتها (مشبال، 2007، 55).

ومما يثبت غريزيّة اللغة عند الخليل بن أحمد هو ذائقته اللغويّة، فقد كره أنْ يبدأ كتاب العين بحرف لا ثبات له،[7] فتحايل على الحروف، ليستهلّ معجم "العين" بحرف العين. ولولا ذائقته الموسيقيّة في معالجة اللغة وبحورها لما تسنّى له وَقْعُ صوتِ الحروف في الأذن (نصار، 1988). فالطّابع الموسيقي للكلمة يُكمل طابعها الحسّي، واتّفاق الألفاظ في الوزن دليل على الاتّفاق في قالب المعنى ونوعه. وكانت القوالب عبارة عن أوزان موسيقيّة تدركها الأذن بسهولة، فيدرك السّامع جزءًا من المعنى. فقد كانت قوالب الألفاظ لدى الخليل، وصيغ الكلمات أوزانًا موسيقيّة تقوده كسامع نحو المعنى (الجابري، 2002، 89).

وجدير بالذكر، أنّ سيبويه وأستاذه الخليل يبرّران ما يخالف نهج العرب في أساليبها، ولا يجيزان ما لم تقله العرب، معتمدين على ذوق الناطقين بالعربيّة. لذلك جاءت عللهما أقرب ما تكون إلى الفطرة في موافقة الطّبع مع إعمال الذّهن (العبيدي، 1999، 144). فقد سعى الخليل

[7] المقصود هنا حرف الألف الذي يكون همزة أحيانًا، ويكون حرف مدٍّ أحيانًا أخرى. فالهمزة لا ثبات لها، لا في نطقها ولا في كتابتها.

إلى ضبط منهج العرب في بناء الكلمات وائتلاف حروفها منعًا لدخول النّحارير من الكلمات المبتدعة على اللغة (الفراهيدي، د.ت، 53). أما سيبويه، فقد استعمل عبارة "ليس في كلام العرب" لينفيَ استخدامهم لبعض الأوزان، أو ليحصر المفردات التي تمثّل ظاهرة صرفيّة نادرة (بعلبكي، 2020، 141). وفي هذه الأمور تأكيد منه على أنّ اللغة تنتهج ذائقة وأناقة خاصّة بناطقيها.

وفي عودة لكتاب "الخصائص" لابن جني، هناك وفرة من الأدلّة والبراهين على الذّائقة اللغويّة. أوليس الذّوق غريزةً؟! يستسيغ بها الإنسان ما يناسب طبعه من مأكل ومشرب حتى وكلام! أليس الانفعال غريزة! والانفعال يُوَلّد الكلام. ففي "باب في الردّ على من ادّعى على العرب عنايتها بالألفاظ وإغفالها المعاني"، يؤكّد ابن جني أهميّة الذّائقة اللغويّة في اختيار الألفاظ وتحبيرها لخدمة المعنى المقصود، وجَعْلِه في أفخر سمت، فيلتذّ السامع لذلك الكلام المسجوع (ابن جني، 2008، 217/1). ما يسهب فيه محمد مشبال (2007) في حديثه عن شجاعة العربيّة في تحبير تعابيرها بطريقة حكيمة. فجاء تفسيره لمبادئ وأصول هذه اللغة وكأنها خصائص الحكمة التي نيطت إليها وشائج اللغة العربيّة بدقّتها ورقّتها وغموضها (مشبال، 2007، 47). ومن أمثلة ذلك أهميّة الاقتصار في اللغة على ما يُقَرِّب ويحَسِّن لا على ما يَبْعُد ويُقَبِّح (ابن جني، 2008، 67/3).

فالحكمة في نظر مشبال، هي تلك الطّاقة الإبداعيّة الكامنة في اللغة، التي ترتبط بوجود صانع مبدع يقف وراء هذا العالم. والكشف عن مظاهر الصّنعة والإبداع في هذه اللغة، عبارة عن إثبات على عظمة الله وحكمته في الموجودات (مشبال، 2007، 49). ومن خصائص هذه الحكمة، اهتمام العرب بالمعاني وذّبّهم للشوائب عنها، وقد قدّمتها على الألفاظ، فجاءت حروف المعاني في أول الكلمة لتمكّن المعنى في أنفسهم، ومثال ذلك أحرف المضارعة التي تستهلّ الجذر مثل نفعل، ويفعل، وتفعل (ابن جني، 2008، 225/1).

من المبادئ والمعايير إلى الخصائص والمقاييس

لقد تحدّث تشومسكي عن النّحو العام أو الكلّي، وعن مبادئ اللغة ومعاييرها. يقوم النّحو الكلّي (UG: universal grammar) بتزويد نظام ثابت من المبادئ والمعايير (principles and parameters)، لتكون النّتيجة النّهائية للنّحو العام (UG) هي تصوّر آليّة اللغة (Chomsky, 1996, p. 218)، وهذا ما نراه عند الخليل بن أحمد في حديثه عن خصائص العربيّة في ائتلاف حروفها، وما هو من تأليف العرب، وما ليس من تأليفهم. وكذلك سيبويه أكّد على وصف العربيّة بما يميّزها عن سواها (بعلبكي، 2020، 99). فقد جعل لها مبادئ خاصّة بها، وأفردها عن غيرها من اللغات المجاورة. وهذا دليل واضح على أنّ معايير اللغة بعامّة، تتداخل لدى النّاطق بلغة بعينها، ودليل آخر على وعي النّحاة العرب بهذه الخاصيّة في وعيهم اللغوي. فقد افتتح سيبويه كتابه بباب "علم ما الكَلِم من العربيّة"، وألحقها بعد ذلك، بأبواب تشير إلى انتقال الفارسيّة، وغيرها من اللغات إلى العربيّة في بابي "ما أعرب عن الأعجميّة"، و "اطّراد الإبدال من الفارسيّة" (سيبويه، 1982، 4/304-307) على سبيل المثال. وفيه يؤكّد أنّه لكلّ لغة معاييرها ومبادئها. وفي كتاب "المزهر في علوم اللغة وأنواعها" للسّيوطي (ت 911هـ) نراه يقدّم بابًا في "ذكر ضوابط واستثناءات في الأَبنية وغيرها"، يشمل فيه كثيرًا من المبادئ والمعايير اللغويّة، التي أوردها سالفو عصره في كتبهم (السيوطي، 1958، 2/54).

ويؤكّد تشومسكي أنّ اللغة خلق جماعي بأبنيَة تتشكّل من خلال أفعال تواصليّة، عبارة عن قواعد ومحددات (rules and constraints) تتأثّر بالعوامل البيئيّة، التي تتدخّل في بقاء بعض المفردات، وزوال بعضها الأخر لأجل الإبقاء على التّعبير، أو اللفظ الأصحّ في اللغة. فابتكار الكلمات ونسخها بشكل متماثل يؤدّي إلى التنوّع اللغويّ (Mufwene, Coupe, & Pellegrino, 2017, p. 50). وبالمقابل، اكتشف الخليل بن أحمد قوانين التّصريف والنّحو بشكل دقيق، بفضل عقله الرياضي، وذائقته اللغويّة، فقد كانت لديه ملكات لغويّة غريزيّة، لا يفوتها شيء (ضيف، 1968، 33). فقد أرسى نظريّة العوامل والمعمولات وثبّت أصولها في الفعل والفاعل، والمبتدأ والخبر. وتعمل هذه العوامل ظاهرةً ومحذوفةً بهدف الإيجاز في الكلام (ضيف، 1968،

39). ولا بدّ من التأكيد أنّ الفائدة من تعلّم النّحو، جاءت بدايةً بهدف الوصول إلى التّكلّم بكلام العرب، والوقوف على الحقيقة والصّواب، وتقويم كتاب الله عزّ وجلّ، ومعرفة أخبار النبيّ. فإنّ أكثر النّاس كانوا يتكلمون على سجيّتهم، من غير دراية بالنّحو وأصوله، أي الإعراب (الزجاجي، 1986، 95). فقد عمّت مبادئ النّحو التي وضعها البصريون، لدقّتها المنطقيّة ومناهجها الصّارمة حيث لاءم عباقرة اللغة بين قواعدها ومقاييسها ملاءمة دقيقة إلى أبعد الحدود، كأنما بين أيديهم قسطاس مستقيم يضع كلَّ قاعدة في مكانها من غير جَوْر إحداها على أخراها (ضيف، 1968، 167).

حين وضع الخليل بن أحمد معايير اللغة، كان يُكثر من الاحتمالات في وجوه الإعراب للصّيغ والألفاظ والعبارات، بل وأكثرَ من التّأويل والتّخريج حتى يصل إلى مبتغاه من القواعد المستنبطة من عُقر الكلام، ويحلّل ألفاظ الكلام، ويزيد في توجيه الإعراب، وتأويله، وتفسيره (ضيف، 1968، 45). "كان يبني القياس على الكثرة المطّردة من كلام العرب، مع نصّه دائما على ما يخالفه، ومحاولته في أكثر الأحيان أن يجد له تأويلا." (ضيف، 1968، 53) ومقولة أخرى لابن جني تؤكّد أهميّة ما يقدّمه الخليل، ومفادها أنّ "مسألة واحدة من القياس أنبل وأنبه من كتاب لغة عند الناس" (ابن جني، 2008، 88/2).

لا بدّ من الإشارة إلى أبي عليّ الفارسيّ الذي اهتمّ اهتمامًا كبيرًا بالقياس، فقد وسّع مفهومه ليشمل جميع النّحو، وربط بذهنيّة فريدة بين القياس والسّماع، بِصِلات تزيد وتضعف تبعًا لقواعد دقيقة تقوم على استقراء المادة اللغويّة الذي تدرّجت على ضوئه أحكام القياس، من إجماع موجبٍ للقياس، إلى الشّائع، ثم المنفرد، حتى الشّاذ ثم المُسْتَكْره، وأخيرًا الممتنع عن القياس. والموضوعات التي ترتبط بالقياس هي التّعليل، والاحتجاج، والاستدلال، ثم الأصول والفروع، ثم التّخريج والتّأويل. وأكّد على السّماع، إنْ كان من القرآن الكريم أو من أشعار العرب، أو من الأقوال والأمثال (أبو علي الفارسي، 1999، 142). وهذا ما يوضّحه ابن جني في أهميّة الاطّراد في اللغة، أي ما يسير على جميع اللغة، لتبيان الشّاذّ فيها، وهو الكلام المتفرّد الذي لا يلحق جميع اللغة. ويؤكّد أنّ الكلام يسير على الأنواع الأربعة، التي أشار إليها أبو علي الفارسي (ابن جني، 2008، 147/1).

ولا شك انّ اسم المقاييس الذي وسم فيه ابن فارس كتابه لخير دليل على أنّ اللغة تنتهج مقاييس لمفرداتها. ومقولة ابن جني: "ما قيس على كلام العرب فهو من كلام العرب"(ابن جني، 1952، 357/1)، ويؤكّد أنّ علل النّحويين نوعان؛ الأوّل واجب لا بدّ منه، لأنّ النفس لا تطيق غيره. ومثال ذلك قلب "سائر وضارب" إلى "سُوَيْئر وضُوَيْرِب"، فقُلِبَت الألف واوًا لوجود الضّمّة قبلها. فالقاعدة تشير إلى قلب الألف واوًا إذا سبقتها كسرة أو ضمّة. أما الثّاني، فهو ما يمكن تحمّله، على تجشّم واستكراه، ومثال ذلك قولك "موعاد، وموزان، ومُيقن" بدل "ميعاد، وميزان، وموقن" (ابن جني، 2008، 138/1).

ألا يمكن اعتبار هذه القوانين التي وضعها النّحاة قساطيس لنظريّة لغويّة أمثليّة؟! تلك النظريّة التي ينادي بها نحاة العصر (Optimality Theory). فاللغة العربيّة تمتاز بحركة طواعيّة، وتمتلك طاقة كامنة لإبداع علاقات لغويّة لا تتقيّد بنظام القواعد الأصليّة، والمبادئ والمعايير التي انْبَنَت عليها، وذلك لأنها نسق لغوي ينطوي على إمكانات جماليّة مرنة تعطي العربيّة جرأة وشجاعة في استعمالاتها (مشبال، 2007، 59)، ما ينمّ على أنّ اللغة غريزة كامنة تعتمد على ذائقة قد تسير متناظرة مع المبادئ والمعايير، أو مخالفة لها.

التّعليل اللغوي

معنى التّعليل عند النّحويين هو النظر في مختلف الأحكام النّحوية وما يرونه من الأسباب الدّاعية لتلك الأحكام (أبو علي الفارسي، 1999، 98). فقد أخذ النّحاة من مبدأ التّعليل أساسًا لجميع أحكامهم اللغويّة؛ نحويّة أو صرفيّة كانت. فصار اللغوي يجرّب ملكاته الذهنيّة للخروج بعلّة عقليّة تقبل الحكم، أو ترفضه. وكان الخليل بن أحمد أوّل من بَسَطَ القول في العلّة النّحويّة. وقد تأتي العلّة قريبة وقد تكون بعيدة (السامرّائي ف.، 2005، 62). فما أراده النّحوي هو جعل المادة اللغويّة مبنيّة بشكل عقليّ قويم وموحّد لا يقبل الزلل. وهذا هو إعمال العقل في بناء قوانين اللغة. فقد مالت العرب إلى أداءٍ أكثر من غيره في اللغة، رغبة منهم في التخفيف، أو أنّهم استكرهوا استعمال صيغة أكثر من غيرها، أو أنهم استحسنوا صيغة دون غيرها (ضيف، 1968، 37). وهذا خير دليل على أنّ العرب رجعت إلى السّماع في استنباط قوانين اللغة

وتعليلها. وهو عين الأمر الذي تشير إليه اللسانيّات التوليديّة من مبادئَ ومعاييرَ، وخصائص ومقاييس.

فقد عمل الخليل بن أحمد وسيبويه على استقراء اللغة وإحصائها، ومن ثمّ عملا على تعليل تلك الاستقراءات والإحصاءات. فقد قام الاستقراء بوظيفتين، الأولى هي استنباط القواعد العامّة المطَّرِدة، أما الأخرى، فهي رفض الظّواهر اللغويّة الخارجة عن الكثير الغالب. وجاء الاستقراء طبيعيًّا، فالأفراد تستعمل اللغة وتتكلّم بها قبل أن توضع القوانين والقواعد لها، أي أنّ الاستعمال يسبق المعيار (العبيدي، 1999، 130). وهَدَفَ التعليلُ اللغوي إلى أمرين؛ الأول هو التّدليل على ما تتصف به العربيّة بإظهار روعة تراكيب وألفاظ العربيّة والبيان والحكمة في تعابيرها؛ أما الأخير، فقد جاء لبرهنة ما في أساليب العربيّة من خصائص ومميّزات (العبيدي، 1999، 145).

جاءت العلل والأقيسة، التي وضعها الخليل بن أحمد وسيبويه، وفق طبيعة اللغة، ولم تُفْرض على المتكلّم. فعند استعمال اللغة، يقوم المتكلّم بتقديم الفاعل على المفعول، والمبتدأ على الخبر، والموصوف على الصفة بشكل سليقيّ. فالشّواهد التي نجدها في كتب التّراث العربي تؤكّد أنّ العرب تلقوْا اللغة سليقيّة من غير دِراس أو مِران. ومن تلك الشّواهد قول أحد الأعراب للأخفش: "أراكم تتكلّمون بكلامنا في كلامنا بما ليس من كلامنا". وهذه إشارة إلى ما استنتجه النّحاة وعلّلوه في قياساتهم. فالأعرابي لا يعرفها، وهذا تأكيد على أنّ النّحاة لم يَرْوُوها عن العرب، والعرب راعت أمور اللغة، وهذا دليل على انّ العمليّات العقليّة تتمُّ حين يقع استعمال اللغة (العبيدي، 1999، 108). وحريّ بنا القول أنّ التّعليل ظاهرة إنسانيّة فطريّة عرفها الإنسان في غابر العصور، وليست حكرًا على لغة دون أخرى (العبيدي، 1999، 316).

ومن أمثلة التّعليل عند الزجّاجي؛ التّعليل لخفّة الاسم الذي يستتر في الفعل، بينما لا يستتر الفعل في الاسم، لأن الفعل أثقل من الاسم. كما ويعلّل أهميّة التّنوين في الأسماء؛ فالتّنوين علامة للأمكن من الأسماء عند العرب. وعندما يستثقلون الاسم تركوا علامة التنوين في الاسم، فأصبح ممنوعًا من الصرف (الزجاجي، 1986، 101). أما التّنوين في جوارٍ وغواشٍ،

وسوارٍ، فقد سقطت الياء لسكونها، وسكون التنوين من بعدها، فجاء التّنوين علّةً وعوضًا من نقص البناء (الزجاجي، 1986، 98).

ويتحدث ابن جني عن العلل ويعرض في تفصيل الاطّراد والشّذوذ في التّصريف والنّحو، كما يعرض لعوامل الإعراب في الكلم، وقسّمها النّحاة إلى معنوي مثل الابتداء، ولفظي مثل عمل المبتدأ في الخبر، ويقول: إنّ العامل الحقيقي في إعراب الكلم إنما هو المتكلّم (ابن جني، 1952، 109/1). وهذا أكبر دليل على أنّ فرديناند دي سوسير لم يأتِ بجديد، بل سبقه ابن جني وأساتذته إلى أهميّة سياق الكلام، والمرسِل، والمرسَل إليه. ما لا يبتعد عمّا يقوله أولمان (1975) بالنسبة لوظيفة اللغة، إذ تؤدّي وظيفتين رئيستين؛ فاللغة أداة للتّعبير عن الحقائق والقضايا الموضوعيّة فتتشكّل وظيفتها الأولى من خلال توصيل الأفكار ونقلها. أما الوظيفة الثانية فتكون عاطفيّة ديناميكيّة للتّعبير عن العواطف والانفعالات وإثارة المشاعر والتّأثير في السّلوك الإنساني (أولمان، 1975، 92).

ويؤكّد ابن جني على أنّ الاستحسان من غير علّة في قوله "فهذا كلّه استحسان لا عن استحكام علّة." (ابن جني، 1952، 138/1) لما من أهميّة للذّائقة اللغويّة عند الأعرابي. أليست هذه الذّائقة اللغويّة خليقة بأن تكون غريزة؟ شيء ما بداخل الإنسان يدفعه إلى قبول أو رفض لظاهرة ما، دونما علّة. فمع ما يضعه اللغويّ من مقاييسَ ينبغي انتهاجها، إلا أنّه يجعل متّسعًا لذائقته اللغويّة في الاستعمال اللغوي. فهناك قانون وتقنين، وخروج عن ذلك التّقنين لأهميّة الذّائقة السمعيّة عند المتلقي، وهي عينها علم الأصوات الذي ينادي به علم اللسانيّات الحديث. ولا تبتعد هذه القضيّة عمّا يشير إليه سوسير من أهميّة تمييز الأصوات التي تتكوّن منها الكلمة، وعددها، وما بينها من حدود فاصلة. ويؤكّد على أهميّة معرفة نظام العناصر الصّوتيّة، فكل لغة تؤدي وظيفتها بواسطة سلسلة متناسقة ومحدّدة من الوحدات الصّوتيّة، من غير اختلاط خصائصها ببعض (سوسير، 2006، 328).

يؤكّد أولمان (1975) أنه يجب ألا نسمح للكلمات أن تحجب أبصارنا عن حقيقة الأشياء التي تكمن خلفها. فهناك ثلاثة عوامل تتضمنها أيّة علاقة رمزيّة؛ الرمز symbol، الفكرة thought،

والشيء المرتبط ذهنيًا referent. ويلتقي الرمز بالشيء عند الفكرة من خلال علاقة مفترضة. ولا يوجد طريق مباشر قصير بين الرموز أو الكلمات والأشياء. فالأفكار تتوالد عن الأشياء بشكل غير مباشر (أولمان، 1975، 70). ألا يمكن اعتبار هذه العلاقة المفترضة هي الأرضيّة التي بنى عليها النّحاة العرب القدماء تعليلاتهم؟!

إنّ ما يشغل بال الدّارس اللغويّ هو الكلمات التي تصل إلى الفكرة لا الأشياء، أي اللفظ، أو الرّمز والمدلول، وهي الفكرة التي يستوعبها اللفظ. فلا تعيش الكلمات منعزلة عن نظام اللغة، بل تندرج تحت تقسيمات ومجموعات معيّنة، تربطها شبكة من العلاقات المعقّدة غير المستقرّة، علاقات بين الألفاظ والمدلولات، نشعر بها من آثارها ونتائجها (أولمان، 1975، 70). ولهذا الأمر حضر التّعليل اللغوي؛ فقد قدّم ووضح تلك العلاقات غير المستقرّة بين اللفظ والدّلالة، أو بين النّحو والتّركيب، أو التّصريف، أو حتى الاشتقاق.

الاقتصاد في اللغة

يقدّم دي سوسير أسباب التّغيّرات الصّوتيّة في الكلمة. فنعرض منها؛ أنّ كلّ جنس من أجناس البشر يكون على استعداد أن يرسم له مسبقًا اتّجاه التّغيّرات الصّوتيّة، مع أنّ جهاز النّطق لا يختلف من جنس لآخر. لذلك يجدر القول؛ أنّ الأمر يتعلّق بتغيير العادات النطقيّة لدى شعب دون آخر، أي لا يوجد نقص في القدرات والاستعداد الأنثروبولوجي (سوسير، 2006، 218). أما الأمر الثاني هنا، فهو قانون "المجهود الأقل"، والذي يتلخّص في إدراج صوتين في صوت واحد. ومِثال ذلك الإدغام، عندما نجد صعوبة في اللفظ أو النّطق، فننتقل من اللفظ الصّعب إلى الأسهل. ويستوجب فكّ الإدغام مجهودًا أكثر، المهم أنّه لكلّ لسان ما يَسْهُلُ، وما يتعسّر عليه نطقه، فسيولوجيًّا وسيكولوجيًّا (سوسير، 2006، 220). ويشير إلى وجود جوهر للمادة اللسانيّة سبق وضعه في زمان متقدّم. وقد تنجم بعض التّغيّرات الصّوتيّة بسبب خضوع السّكّان الأصليين لسيطرة سكان جدد، فيحدث تحريف في لسان السّكّان الأصليين (سوسير، 2006، 223).

وعند نعوم تشومسكي، يعطي برنامج الأدنويّة أهميّة للاقتصاد اللغوي (language economy) والكفاية في الاشتقاقات والتّمثيلات، بهدف تحقيق نظام لغوي مثاليّ أوبتمالي. فيأتي الاشتقاق مقيّدًا بمعاييرَ اقتصاديّة مفضّلا مبانٍ بسيطة وعلاقات لغويّة محليّة، ويمنع هذا النّظام حدوث أو وجود خطوات أو رموز لا حاجة لها (Chomsky, 1996, p. 218). ففي الاقتصاد اللغوي، تتمّ مقارنة الاشتقاقات البديلة من مجموعة مُعطاة من الألفاظ، ويتمّ اختيار الأكثر اقتصاديّة ليكون هو الاشتقاق الوحيد المسموح (Zwart, 1998). أما اعتبارات الاقتصاد، فتأتي من مبادئ أساسها الأناقة لا المنفعة، فَتَتَسِم اللغة حينها بأنها مُحْكمة ومثالية أوبتمالية (جنكنز، 2016، 274). وهذا ما نراه ليس في مقدّمة "العين"، و"الخصائص" لابن جني وحسب. ففي مقدّمة كتاب "المجمل" لابن فارس، نراه يتحدّث عن مختصر الكلام وقليل لفظه وما فيه من عظيم فوائده (ابن فارس أ.، 1986، 75)، ما يدلّ على اهتمام العرب بالاقتصاد اللغويّ في سبيل إيصال الرسالة الأدبيّة من غير تكلّف أو إرهاق للمتلقّي. فخير الكلام ما قلّ ودلّ.

وهذا الاقتصاد اللغويّ بدا جليًّا عند العرب القدامى، إذ يشير سيبويه إلى أنّ استعمال الادغام الذي يؤدّي إلى التّسهيل، والتّخفيف على اللسان من تكرار الحرف ذاته مرتين، ولكي لا يعود اللسان على ذات المكان للفظه (النوري، 2018، 174). ومن أهمّ أمثلة الاقتصاد اللغويّ في العربيّة، ما جاء لدى الزّجاج في كتاب "الإيضاح في علل النّحو". فقد جاء اعتدال العرب في كلامهم من خلال بناء الكلام على متحرّك وساكن أو متحرّكين وساكن، ولم يجمعوا بين ساكنين، لأنّ ذلك يبطئ سير كلام العربيّة. ويستعجلون مع كثرة الحروف المتحرّكة، وجعلوا الحركة بعد الإسكان (الزجاجي، 1986، 71). وأرسى الخليل بن أحمد نظريّة العوامل والمعمولات وثبّت أصولها في الفعل والفاعل، والمبتدأ والخبر. وجاء عمل هذه العوامل ظاهرةً ومحذوفةً بهدف الإيجاز في الكلام. (ضيف، 1968، 39) ولا بدّ من التّنويه هنا، أنّ حذف الحركات في لغتنا اليوم، إن كانت عاميّة، أم فصيحة مسكّنة، ما هو إلا من ظواهر الاقتصاد اللغوي. فقد عملت اللغة بشكل طبيعيّ على مواكبة حاجة النّاطق بها، حالها كحال باقي لغات العالم.

أليس النّحت في اللغة الذي أورده ابن فارس، أحد أهم معايير الاقتصاد اللغوي؟ ويؤكّد بعلبكي (2020) أنّ المقاييس تحتوي على 404 الفاظ منحوتة، معظمها منحوت من كلمتين أو أكثر، والباقي من كلمة وحرف زائد (بعلبكي، 2020، 461). ومثاله على ذلك، لفظة سحبل، المبنيّة من سحب وسبل وسحل؛ وتعني الوادي الواسع، وقد تكون القِربة الواسعة (ابن فارس، 1994، 158/3). ألا يُمكن اعتبار النّحت في اللغة اقتصادًا لغويًا؟ ويقدّم جلال الدّين السّيوطي في كتابه "المزهر في علوم اللغة" مجموعة كبيرة من الألفاظ المنحوتة، التي تشير إلى أهميّة الاقتصاد اللغويّ في الكلام. ومن أمثلة ذلك الدّمعزة؛ أي أدام الله عزّك، والطّلبقة؛ أي أطال الله بقاءك، والجَعْفدة بمعنى جُعِلتُ فداك (السيوطي، 1998، 372/1) ونراه يقول إنّ التّيسير والتّخفيف من سنن العرب في كلامهم، وإنّهم يميلون إلى اختصار النّطق وتسهيل الأداء، خاصّة في الألفاظ الثّقيلة أو المتنافرة، وينزعون للجوء إلى الإبدال والإتباع والتّخفيف الصّوتي لتسهيل النّطق (السيوطي، 1998، 268/1).

ويتطرّق ابن جني للاقتصاد اللغوي، في حديثه عن خفّة الفعل الثّلاثي في الكلام، وتمكّنه في اللغة. فيتطرّق إلى ثِقَل الرّباعي والخماسي، لقوّة الكُلْفة بهما. ويؤكّد أهميّة الاعتداد بالفعل الثّلاثيّ لما فيه من تقاليبَ تجيز للمتكلّم استعمالها وفق تقانين يرد ذكرها في جميع متن "الخصائص". حتّى أنّ الفعل الثّلاثيّ أخفّ من الثّنائيّ وأمكن، مع أنّه قليل الحروف. فالثّلاثيّ يتركّب منه ستّة أصول أي تقاليب،[8] والرباعي يتركّب منه أربعة وعشرون أصلا، لا يُستعمل منه إلا النّزر اليسير، والخماسيّ قَلّت أصوله لما فيه من كلفة في التّقليب والتّصريف (ابن جني، 2008، 104/1).. فاللغة تسير نحو الاقتصاد في نهجها ووضعها. ويتحدّث عن الاقتصاد في المجهود اللغوي في تصويت الحرف إن كان صوتًا أو صُويتًا يتممّ ذلك الصوت. فهناك فرق في لفظ الصّاد في كلمتي "إصْبر وصَبَرَ"، فالوقف في "إصبر" يُطلق صويتًا، بينما التّحريك في "صَبر"

[8] المقصود بالأصول هنا، تقاليب الجذر. فللجذر ج.م.ل.، خمسة تقاليب أخرى، ج.ل.م. و م.ج.ل.، و م.ل.ج.، ول.ج.م.، و ل.م.ج.. والجذر الرباعي س.ب.ط.ر. يحتوي على أربعة وعشرين تقليب، قليلة الاستعمال.

يلغي ذلك الصّويت. ويتطرّق إلى ترخيم الأصول الخماسيّة، إذ تصبح سفرجل، سفرج (ابن جني، 2008، 108/1).

ويؤكّد مشبال (2007) أنّ قوّة نظر أصحاب العربيّة، حسب تسمية ابن جني، ودقّتهم في استعمالها، تنبئ عن تأمّلهم لمواقع الكلام، ولطف استشفافهم له، وتصفّحهم له. ففي اختلاس الحركات، دليل على تأمّلهم لمواقع الكلام، وإعطاء كلّ موقع حقّه من اللفظ. واعتبرها ابن جني من خصائص اللغة الطبيعيّة، التي تسير وِفق معايير جماليّة إبداعيّة. ما سمّاه ملاطفة الصّنعة في الشّعر (مشبال، 2007، 51).

من مصطلحات أحيائيّة اللغة

لا بدّ من الإشارة إلى أنّ أحيائيّة اللغة تُدْرِج كثيرًا من المصطلحات التي تشير إلى ما قدّمه النّحاة العرب، بكلمات مطابقة أو مشابهة. فتقول فرضيّة حُبِّ الأشجار (dendrophilia hypothesis) إنّ الإنسان يميل إلى العثور على بعض القواعد العامّة، التي تمكّنه من استنتاج بِنيات سُلَّمِيّة من خلال قواعد فوق اعتياديّة. وتسمح باكتساب اللغة، وحوسبة الاحتمالات، واستنتاج قواعد من مستوى أعلى، يدركها النّوع البشري من خلال استنتاج أشجار من المتواليات اللغويّة. فاكتساب اللغة يدفع البشر إلى تحليل المتواليات في صورة أشجار، واستخدام ذلك في توليد بنيات جديدة (غاليم م.، 2021، 24). لذلك لا بد من الاعتماد على فرضيّة حبّ الأشجار، لأنّها نشأت عند الانسان قبل عمليّة الضمّ والتكرار، كما أشار محمد غاليم (2021). وهذه الفرضيّة تثبت أنّ لدى الإنسان ملكة غريزيّة في تركيب اللغة.

ويُعدّ التّكرار خصّيصة متفشيّة في جميع الأنساق الإدراكيّة والمعرفيّة، وتَسْتَخْدِم الملكةُ اللغويّة هذه القدرة على القيام بالتّحليل السُّلَّمي التّكراري وتوظِّفها لأغراضها الخاصّة. فاللغة هي نسق التّواصل الطّبيعي الوحيد، إذ تملك إشاراته بِنْيَة سلميّة تعكس الإرساليّات المنقولة. ويؤكّد تشومسكي أنّ العمليّة التكراريّة أو الضّمّ merge، هي أساس القدرة التي نملكها لإنتاج تعابير لا محدودة باستخدام وسائل محدودة، وتولّد البِنْيَة السُّلَّميّة للغة (غاليم م.، 2021، 107) ولا ضَيْرَ من اعتبار هذه البنية السلّمية أساس الأشجار اللغويّة. وتقترح هذه الفرضيّة أنّ

البشر يمتلكون قدرة فريدة على معالجة التّراكيب الهرميّة المعقّدة في اللغة والموسيقى مثلاً. وتتطلّب هذه قوّة حسابيّة، تتجاوز النماذج المحدودة، وتتيح فهم البنية النّحويّة والدّلاليّة للغة.

لا بدّ من الإشارة إلى أنّ هذه الظاهرة السّلّميّة أو الشّجريّة، وردت في كتاب "المزهر في علوم اللغة وأنواعها" للسّيوطي في باب "معرفة المشجّر" من علوم اللغة. وقال في تسمية الكتاب: "سمّينا الباب شجرة لاشْتِئجار بعض كلماته ببعض أي تَداخله وكلُّ شيء تداخل بعضه في بعض فقد تشاجر". وذكر السّيوطي كتاب "شجر الدّر في تداخل الكلام بالمعاني" لأبي الطّيّب اللغوي، الذي ألّف فيه بين مفردات اللغة وجمعها باستئجارها على شجرة وفروع (السيوطي، 1958، 351). ويشير بعلبكي (2020) إلى هذا النّوع من الكتب الذي يبدأ الفصل فيه بكلمة غريبة عادة، تعقبها مفردة تفسّرها، ثم مفردة ثانية تفسّر سابقتها، وهكذا دواليك (بعلبكي، 2020، 144). وهذه الكتب التي استهدفت تفسير مفردات اللغة، تؤكّد أنّ القدماء استقرأوا اللغة عن ذائقة لغويّة نابعة عن ملكة داخليّة غريزيّة.

ولا ضير من الرجوع إلى المنهج اللغويّ عند القدماء، فمنهج الخليل وسيبويه هو فكرة العامل من ناحية، وفكرة الأصل والفرع من ناحية أخرى، وذلك لتعليل ما يقيسون عليه. فجاء التّعليل والتّأويل لشرح الظّواهر اللغويّة، بهدف الكشف عن نظام اللغة وصولا إلى الحكمة التي يبتغيها واضعي اللغة. وهذه العلل ليست نهائيّة العدد، بل قَدّما عِلَلَهُما لتكون منهجًا لمن يأتي بعدهما (العبيدي، 1999، 146). وعند ابن جني نرى مثل ذلك المنهج في قوله إنّ الأصل واحدٌ والفروع متضعِّفة ومتصعّدة. فللاشتقاق أصول لها فروعها، ومن تلك الفروع تنشأ فروع عنها. ومثال ذلك الأصل "نَبْت"، فهو الجوهر الذي تخرج منه فروع، كالنّبات، والإنبات، والنّبتة، والفعل نَبَت، وتصريفاته. فهذه جميعها فروع تخرج من فروع (ابن جني، 2008، 235/3).

ومن مفاهيم أحيائيّة اللغة، "أعداد فيبوناتشي" ونظريّة "كل شيء" النّظام الكامن وراء الكون، وتظهر بشكل مذهل في الطّبيعة مثل ترتيب أوراق الأشجار، وأنماط نمو الأصداف. فقوانين الطّبيعة تؤدّي إلى وجود أنماط فيبوناتشي. ويقدّم جنكنز لايل (2016) مجموعة من الأدلّة التي تدعم فكرة غريزيّة اللغة وأنّ اللغة خاصيّة بيولوجيّة فطريّة لدى الإنسان، وليست

مجرّد ظاهرة ثقافيّة، أو مكتسبة بالكامل. فقد اقترح العلماء توظيف قوانين الرياضيات في معالجة وتوضيح قوانين الطّبيعة (جنكنز، 2016، 278). وكانت التّجارب قد أظهرت أنّ الدّماغ يعالج اللغة بطريقة تختلف عن معالجة المعلومات الأخرى كالمعلومات العدديّة. وتُخزَّن اللغة وتُسترجَع بطريقة منظّمة، مما يدلّ على وجود بنية عقليّة خاصّة بها.

ويميل تشومسكي إلى الحدس العقلي والنماذج النّظريّة المجرّدة، إلا أنّ بنكر يطالب بنماذج حسابيّة دقيقة لاكتساب اللغة، ويؤمن بضرورة اختبار النظريّات تجريبيًّا. لذلك نراه يعارض، بل وينتقد اعتماد تشومسكي على الحدس العقلي والنماذج النظريّة المجرّدة، ويؤكّد أنّ المنهج العلمي يتطلّب نماذج حسابيّة دقيقة قابلة للاختبار التجريبي (Pinker & Bloom, 1990, p. 728). لذلك كان لا بدّ من اللجوء إلى نظريّة كلّ شيء التي نوّه إليها جنكنز لايل (2016)، التي تنادي بالتكامل المعرفي، فيدعو إلى دمج علم اللغة مع علم الأعصاب، وعلم الوراثة وعلم النفس المعرفي لفهم اللغة بشكل كامل. ويسعى جنكنز إلى بناء إطار موحِّد لفهم اللغة، يجمع بين البنية العصبيّة للدّماغ، والقدرات الفطريّة، والنماذج النّحويّة، والتطوّر البيولوجي. وهذا الأمر يشبه السعي نحو "نظريّة كل شيء" في الفيزياء، لكن ضمن نطاق اللغة والذّهن البشري. وجوهر فكرته هنا، أنّ اللغة ليست مجرد وسيلة تواصل اجتماعيّ، بل قدرة بيولوجيّة عميقة، تُولد مع الإنسان، وتستحقّ دراسة علمية صارمة كأي وظيفة عقليّة أخرى (جنكنز، 2016، 270). لذلك فهو يقترح اللجوء إلى قوانين الرياضيّات لتوضيح قوانين الطبيعة.

وتعود هذه الفكرة إلى لوالب زهرة عبّاد الشمس، التي اعتمدها ليوناردو فيبوناتشي من مدينة بيزا في القرن الثالث عشر. إذ يمكن ملاحظة التّرتيب المكاني للّوالب بالعين المجرّدة، إلا أنّ التّعاقب الزمني لظهور البادئات وطلائع الأوراق والتويجيات، تظهر في نمو النبات على لولب توليدي. وقياس الزّاوية التي تنشأ في وسط اللّولب هي ٥137.5 تقريبًا. ويبدو أنّ هناك علاقة وثيقة بين هذه الزّاوية وأعداد فيبوناتشي المتتالية (1 1 2 3 5 8 13 21 34...). فقد اكتشف علماء النّبات وجود تطابقات مدهشة بين النّمط العددي لسلسلة فيبوناتشي ونمط النّمو للعديد من النباتات الزّهريّة. ووجد اينشتاين تماثلا بين الأعداد والطبيعة، إذ تتجسّد أعداد فيبوناتشي في

انتظام تلك البنى (جنكنز، 2016، 277). فهذه الزّهرة تخضع لقوانين الفيزياء لدلالتها على الزّاوية الذّهبيّة 137.5°، وذلك بافتراض أنّ الوراثة تتفاعل مع قوانين الفيزياء لحركة النّمو (جنكنز، 2016، 356).

واتّضح فيما بعد أنّ هذه الأعداد تمثل ظواهر فيزيائيّة موجودة في الطّبيعة. ثمّ أخذ علماء اللغة من هذه الظّواهر، وحاولوا تطبيقها على بنية الدّماغ، لكونها آليّة طبيعيّة لاستقصاء فهم تطوّر اللغة. وراحوا يفسّرونها، ويطبّقونها على أنماط في اللغة الإنسانيّة مثل رتبة الكلام، word order (جنكنز، 2016، 381). ويقود البحث هنا، إلى تطبيقها على اشتقاقات الألفاظ من جذور الكلام، بتحويراته وتناظراته، للوصول إلى المعيار الأمثل في اللغة، والذي تقود إليه الأمثليّة اللغويّة optimality theory من خلال النظرة الأدنويّة.

مبادئ الخليل بن أحمد الثّلاثة في حصر مفردات اللغة، ما هي إلا عِماد لتلك الفكرة الفيبوناتشيّة اللامتناهيّة في حصر مفردات اللغة. فالمبدأ الأول يشير إلى الحروف الأصول في اللغة، وهي تسعة وعشرون بإضافة الهمزة. وهي لَبِنات الأساس، التي تتسق العربيّة بموجبها. أما المبدأ الثاني، فهو عدد الأصول في كل جذر؛ فيبدأ من الثّنائيّ مثل قد ولم، ثمّ الثّلاثيّ، نحو جلس ونمر، ثمّ الرّباعيّ، نحو دحرج وعقرب، وأخيرًا الجذر الخماسيّ، نحو سفرجل واقشعرّ. أمّا المبدأ الأخير، فهو تقاليب تلك الجذور في تصرّفها في الكلام، وهي ما تؤدي إلى تضخّم مفردات تلك الجذور (بعلبكي، 2020، 391). ألا يمكن الأخذ باعتبارات فيبوناتشي في طريقة تكوّن المفردات بشكل فعّال أكثر؟

لو تعمّقنا في هذه الحركة اللغويّة، لوجدناها تسير في أكثر من اتّجاه، في الأخذ بحروف الجذر الثلاثيّة وتقاليبها. فنرى الخليل بن أحمد اعتمدها لحصر مفردات اللغة العربيّة. في حين لم يعتمدها ابن فارس في كتاب "المقاييس"، بل وكأنّه اعتمد دائرة نثر حروف العربيّة الأبتثيّة، وجعل المفردات تتداول في كتاب "المقاييس" باتّجاه طردي واحد. وهذا يفسّر إسقاطه للتّقاليب

(بعلبكي، 2020، 455)، ورفضه للاشتقاق الأكبر حسبما ورد في مقدّمة مقاييسه.[9] بل ويمكن دراسة دائرة ابن فارس وتطبيق نظريّة "كل شيء"، وأرقام فيبوناتشي، ودراسة النسبة الذهبيّة عليها بشكل علميّ.

ولو نظرنا في حيثيّات الاشتقاق الأكبر لدى ابن جني، لرأينا أنّها تسير في أكثر من اتّجاه، لتناول أكبر عدد من تقليبات الحروف. فهناك التّقاليب الستّة للجذر الثّلاثيّ على سبيل القصر لا الحصر، وهناك مضارعات، أو مقاربات صوتيّة لتلك الحروف. وهنا نصل إلى قضيّة كواركات اللغة، (quarks)، وهي تلك الأجزاء المتناهيّة الصّغر التي تشكّل الكون. ونفترض هنا، أنّ اللغة تسير على نهجٍ مشابه، بل مطابق لما يحدث في الكون. لقد تحدّث تشومسكي عن مشكلتين في أصل الملكة اللغويّة ودورها في ظهور القدرة العقليّة عند البشر؛ وأولها العناصر الأساسيّة التي تحمل المعنى، minimal bearing-meaning units، والمشكلة الثّانية تتعلق بماهيّة الأسس التي تسمح بالدّمج اللانهائي للرّموز وترتيبها بشكل سلّمي، والّتي تقدّم الوسائل لاستعمال اللغة (Chomsky, 2005, p. 4). ولا بدّ من الإشارة إلى أنّ عمليّة الدّمج، أو الضّم merge، تتناول التّصوّرات البشريّة، باعتبارها ذرّاتٍ حاسوبية، تنتج تعبيرات مُبَنْيَنة، تقدّم لغة فكر غنيّة. وحسب افتراض تشومسكي، فهذه العمليّة تشكّل ألغازًا عميقة، فهي تشبه الكلمات، ولكنها ليست كلمات، وأصلها غامض (غاليم م.، 2021، 114).

وقد نجد جوابًا لهذه الألغاز من أحيائيّة اللغة عند جينكنز لايل (2016)، الذي أشار إلى أنّه منذ ستينات القرن العشرين، ظهرت فرضيّة الكواركات (quarks)، التي تشير إلى أنّ العالم يشتمل على عناصر أساسيّة، كواركات، وهي الجسيمات التي لا يمكن تجزئتها إلى عناصر أصغر. وتتألف من لَبِنات أساسيّة لبناء المادّة، وتسمّى أحاديّات القطب (monopoles)، وتشكّل جلّ

[9] من خلال النظر في إحالات ابن فارس في معجم المقاييس، من مفردة إلى أخرى، ندرك أنّ هناك قرابة ومضارعة بين الحروف، مما يؤكّد وجود نظريّة الاشتقاق الأكبر في متن اللغة.

الشّكل الخارجي لها. ترتبط اللبِنات ببعضها بشكل قويّ مُشَكِّلة جسيمات تدعى مُسْتَكنزات (hadrones)، فتكون الكواركات مأسورة داخل المستكنزات (جنكنز، 2016، 32).[10]

ويقدّم الخليل بن أحمد في مقدّمته، طريقة لالتماس وصف أصوات اللغة العربيّة من خلال حسّه اللغوي، تنمّ عن تصوّر منهجيّ مبتكر. فجاء وصفه للصّوت مثل؛ الطّلاقة، والضّخامة، والنّصاعة، والكزازة، والخفوت، والبحّة، والهتّه، واللين، والهشاشة (بعلبكي، 2020، 98)، وكأنّها هي عينها الكواركات غير المرئيّة التي تشي بصفة المفردة قبل أن يعيَ السامع، أو المتلقّي خصائص معناها ودلالتها. وقد تكون كواركات جنكنز لايل هي عينها وحدات حمل المعنى المتناهية الصّغر التي أشار لها نعوم تشومسكي (minimal bearing-meaning units).

وما يجعل اللغة لغةً، هو طريقتها في الإنتاج الصّوتي المتعلِّق بالبِنْيَة التّصوّريّة، وبكلمات أخرى ازدواجيّة البناء أو التّأليف (غاليم م.، 2021، 143). وقد نُحيلُ هذا الأمر إلى بِنْيَة الكواركات والازدواج التي بُنِي عليها العالَم الفيزيائي الطّبيعيّ (جنكنز، 2016، 80). ويمكن اعتبار الأصوات اللغويّة (phonemes)، أو الوحدات الصرفيّة النّحويّة (morphemes)، عناصر أوليّة لبناء الكلمات، تُدمَج هذه الوحدات وفق قواعد صارمة، كما في قوانين الطبيعة، لتنتج تراكيب لغويّة مفهومة، كما يحدث في الجسيمات دون الذريّة أي الكواركات. فتعمل اللغة ضمن نظام حسّاس، يتأثّر بالسّياق والاختلافات الدّقيقة، تمامًا مثل التّفاعلات في الفيزياء والكيمياء. كما لا يمكن فصل الكواركات عن البنية التي تظهر فيها، لا يمكن عزل المعاني عن السّياق اللغويّ.

[10] من خلال بحث بسيط في ويكيبيديا، نرى أن هناك أربعة أنواع من الهادرونات (مستكنزات)، تتكون من كواركات أو كواركات مضادة أو كليهما معًا، وترتبط هذه الكواركات ببعض بفعل مركّب آخر (gluon)، ويحمل قوة التفاعل الشديد، ويربط الكواركات ببعضها. وقد تبين أنّ هناك هادرونات ثنائية الكواركات، وأخرى ثلاثية، ورباعية، وخماسية. والكوارك هو جسيم أولي، له كتلة متناهية الصغر، تُرصد أبعادها عند حدوث تصادم شديد بين البروتون والإلكترون. وهذه الكواركات تحمل شحنات كهربائية وأخرى لونية (ويكيبيديا، د.ت).

ألا يمكن اعتبار العلل التي يقدمها النّحويون القدماء جزءًا من الكواركات التي تخفت ظلالها أحيانا، وتعلو أحيانًا أخرى؟ فعلى سبيل المثال، جاء تكرير اللفظ لتكرير المعنى، مثل **الكبكبة**، فتكرير الكبّ في اللفظ دليل على التكرير في المعنى (السامرّائي ف.، 2005، 287). والكلمات المتقاربة الأحرف متقاربة المعاني مثل؛ **قصم**، **وفصم**، **وفصل**، فجاء الكسر المبين الواضح بحرف القاف. وجاء الكسر غير المبين بالفاء (السامرّائي ف.، 2005، 291). وجاء **الفصل** مشيرًا إلى انقسام من غير كسر.

ومن أمثلة تلك الكواركات اللغويّة؛ لا تُرى الدّال واللام مؤتلفة مع حرف ثالث، إلا وهي تدلّ على حركة ومجيء، وذهاب وزوال (نصار، 1988، 184). ومثال ذلك ما أشار إليه ابن فارس في معجمه من جذور؛ فالجذر **د.ل.ص.** يدلّ على السّقوط الخفيف، كإسقاط المرأة لجنينها، والجذر **د.ل.ظ.** يدل على الدفع. والجذر **د.ل.ك.** يفيد في حركة الشمس، ومنها **التدليك** (ابن فارس، 1979، 296/2). ويقول ابن فارس في متن مقاييسه: " إِنَّ اللهَ تعَالَى جَعَلَ فِي كُلِّ شَيْءٍ سِرًّا وَلَطِيفَةً. وَقَدْ تَأَمَّلْتَ فِي هَذَا الْبَابِ مِنْ أَوَّلِهِ إِلَى آخِرِهِ فَلَا تَرَى الدَّالَ مُؤْتَلِفَةً مَعَ اللَّامِ بِحَرْفٍ ثَالِثٍ إِلَّا وَهِيَ تَدُلُّ عَلَى حَرَكَةٍ وَمَجِيءٍ، وَذَهَابٍ وَزَوَالٍ مِنْ مَكَانٍ إِلَى مَكَانٍ، وَاللهُ أَعْلَمُ." (ابن فارس، 1979، 298/2).

فكما تحدّد الكواركات أطوال الموجات والألوان، تحدّد هذه الميزات التي يذكرها ابن فارس الألفاظَ والمعاني. ومن الكواركات اللغويّة التي يذكرها الخليل بن أحمد في كتاب "العين"؛ لا تصحّ الكلمة الرباعيّة أو الخماسيّة من غير حروف ذُلْق أو شفويّة، فإن حضرت تلك الكلمة فهي ليست من كلام العرب (الفراهيدي، د.ت، 12). ومن تلك الكواركات أيضًا، جرس الحروف؛ حين يستذكر سيبويه محاورته مع الخليل عن الأثر الصّوتي الذي تُحدثه العين والقاف في الكلمة (بعلبكي، 2020، 94)، ويستشِفّ السّامع المتلقي النّصاعةَ التي أشار إليها الخليل في "العين" (الفراهيدي، د.ت، 17).

لا بدّ من التّأكيد أنّ سيرورة اللغة تسير وفق كواركات موجودة فيها، بينما يحاول النّاطق استعمالها من غير أنْ يدري، إلا أنّ اللغويّ يحاول تبيانها بشتّى الطّرق والوسائل، والّتي لا يمكن

إحصاؤها. لكن الحصّة الكبيرة يمكن عزوها للإدغام الذي أسهب في تفسيره القدماء. ولا يمكن حصره في إطار واحد، لأنه لا يمكن حصر الكلام وفق مِنوال واحد أو قاعدة واحدة. ويشير النّوري (2018) في حديثه عن الإدغام، وأصوله التي أحصاها سيبويه، ولم تتعارض مع علم اللسانيّات الحديث في شيء. وقد أثبت النّوري ذلك في متن الباب الثاني من كتاب "التفكير الصّوتي عند سيبويه في ضوء علم اللغة الحديث". فهناك خاصيّة معيّنة لكلّ حرف تسمح بإجراء الإدغام واجبًا، أو جوازًا، أو منعه. ومن أمثلته في ذلك؛ "اخشيْ يّاسرًا"، فقد وجب إدغام الياءين في بعضهما أثناء اللفظ. ولفظة "يَظْلِمُونَنِي"، يجوز إدغامها "يظلموزّي"، بينما لا يجوز إدغام التعبير "ابنُ نُوح"، وذلك لوجود حرف ساكن صحيح قبل الحرفين المثلين (النوري، 2018، الصفحات 179-186).

ولا بدّ من ذكر نظريّة الأوتار وثنائيات التّناظر واللا تناظر(superstring theory) من اللسانيّات الأحيائيّة. فقد توصّلت العلوم الفيزيائيّة إلى فرضيّةٍ مفادها؛ أنّ كافّة الجسيمات في الكون ما هي سوى اهتزازات لأوتار بالغة الصِّغر. فتفترض هذه النّظريّة وجود التّناظر الفائق في الكون، وهي عينها نظريّة أو مفهوم الازدواج الذي يفسّر الحالة التي عليها العالم، فهذه النّظريّة لكلّ شيء، تُعِين على دمج نظريّات أوتار بديلة متنوّعة (جنكنز، 2016، 77). فحسب نظريّة الأوتار الفائقة، تهتزّ الأوتار الدّقيقة في أبعاد متعدّدة، لتنتج تنوّعًا هائلًا من الجسيمات، تمامًا كما تهتزّ الأصوات في اللغة لتنتج تنوّعًا هائلًا من المعاني. وكل نمط اهتزاز في النظريّة يمثل جسيمًا مختلفًا، كما كل تركيب لغوي يمثل دلالة مختلفة، تتشكّل وفق عدة سياقات كالنّحوي والعاطفي والثّقافي. وعليه فاللغة، مثل الكون، ليست مجرّد نظامًا سطحيًّا، بل تحتوي على "أبعاد خفيّة" من المعاني، والنّوايا، والإشارات غير المنطوقة. وهذه الأبعاد تشبه الأبعاد الملتفّة في نظريّة الأوتار، التي لا تُرى، ولكنّها تؤثّر في كل شيء. وإذا كانت نظريّة الأوتار تسعى لتوحيد القوى الفيزيائيّة، فإن اللغة تسعى لتوحيد الفكر والتّواصل، عبر نظام من الرّموز يهتزّ في عقولنا ليخلق واقعًا مشتركًا.

ويقرّ تشومسكي بأنّ الآليّةَ التّكراريّةَ ازدواجيّةٌ، تتفاعل مع النّسق التّصوّري (أي المعنى) من جهة، ومع النّسق الحسّي الحركي (أي الصّوت) من جهة أخرى (غاليم م.، 2021، 116). وبكلمات أخرى؛ العمليّة التكراريّة هي أساس القدرة على انتاج تعابير لا محدودة باستخدام وسائل محدودة، وتُوَلّد البنية السّلّميّة للغة. وهذه العمليّة جزء من تناظر الكون الفائق الذي تفترضه نظريّة الأوتار. ويعتمد برنامج الأدنويّة على معايير أمثليّة في تصميم اللغة، فالتّناظر في اللغة يفرض التّصميم الأمثل لها (جنكنز، 2016، 274).

وظهرت نظريّة الأمثليّة اللغويّة (optimality theory) كتطوّر في النّحو التّوليدي لتشومسكي. إذ تهدف إلى تفسير الظّاهرة اللغويّة من خلال تنوّع الأداءات اللغويّة. وتدمج بين الجانب الاستعمالي أي التّداولي وبين الجانب الدّلالي (رزايقية، 2022، 443). فالأداء اللغويّ (performance) منوط بالكفاية اللغويّة (competence) التي تتمثّل بمعرفة ابن اللغة للغته بشكل كافٍ وواعٍ من ناحية نحويّة وتداوليّة (رزايقية، 2022، 447). ويؤكّد بوديلا (2013) أنّ استعمال اللغة العربيّة يتمّ حسب أمثليّة لغويّة، تسير في أوتار من الأفضل إلى الأسوأ. فالمعالجة اللغويّة التي تتمّ عند المتكلّم والمستمع على حدٍّ سواء، تتمّ وفق تقييدات آنيّة لمبادئ ومعايير موجودة، بل مُذَوَّتَة عند كليهما. وهي ما يؤكّده سيبويه في متن كتابه (Boudelaa, 2013, p. 370). فلا تخلو صفحة من "الكتاب" من غير شرح أو تفسير للقضايا النّحوية التّناظريّة، القياسيّة.

تعتمد هذه النّظريّة على وجود معايير مقيّدة ومفاضِلة للحكم على البنية اللغويّة الأنسب في التّعبير، أو المثال المعطى. فتقوم على أساس تفضيل صيغة على أخرى من خلال النّظر إلى الصّيغة التي تكبّدت الحدّ الأدنى من الانتهاكات للقيود الموضوعة للمثال واختيارها (رزايقية، 2022، 445). معايير هذه النظريّة تأتي ثنائيّة التفاضل؛ الأفضليّة القواعديّة، حين يتّفق التركيب مع قواعد النّحو، والأفضليّة الاستعماليّة للملاءمة مع التّركيب والسّياق. وتأتي المفاضلة هنا، بهدف تحقيق المعنى، لأنّ غيابه يؤدّي إلى فشل تواصلي. فقد يكون الشّكل الأمثل للأداء اللغويّ ليس حسب القاعدة النّحوية الصّارمة، لأن الأداء يأتي على ثلاثة مستويات. الأوّل

هو المستوى النّموذجي الذي يتّفق مع القواعد ويحقّق المعنى. والمستوى الثّاني، هو الأداء المقبول لغويًّا، وهو ما يحقّق المعنى، ويخالف القاعدة أو القواعد. أما الأخير، فهو الأداء المرفوض الذي يخالف القاعدة، ولا يحقّق المعنى (رزايقية، 2022، 452).

وليس بِخَفِيّ على القارئ أنّ العرب قد مارسوا، بشكل عمليّ، ما يُعرف اليوم بنظريّة الأفضليّة اللغويّة، وأنّ تراثهم النّحوي يحتوي على أدلّة في المفاضلة بين التركيبات اللغويّة وفق المعنى والدِّلالة السّياقيّة، وليس فقط وفق القواعد الجافّة. فقد قدّموا الأداء اللغوي المقبول، لشيوع استعماله. ويعدّ كتاب سيبويه باكورة نظريّة الأفضليّة اللغويّة، لما استعمله من أساليب المفاضلة في اللغة. ويأتي على تقسيم الكلام إلى حسن وقبيح، ومستقيم ومحال (رزايقية، 2022، 448).

يُعرّف القياس بأنه تقدير شيء على مثال شيء آخر وتسويته به، والتّلازم بين أمرين، يستدير أحدهما على الآخر على وجه الضّرورة، أو ما يشبه الضّرورة، أو ما يقاربها. ومن القضايا التي ترتبط مع فكرة القياس في النّحو؛ التّعرّض للأصول والفروع، ومثال ذلك أصل الأسماء التّذكير، أما التّأنيث فهو فرع لهذا الأصل. والتّعرّض للتّخريج والتّأويل من ناحية، والاحتجاج والاستدلال والتّعليل من ناحية أخرى. وهذه الأمور تستدعي النّظر في جميع الأحكام النّحويّة، بهدف الوصول إلى قياسٍ أمثل (أبو علي الفارسي، 1999، 104). وتقدّم هذه القضايا، بمجملها، الحلّ، أو الأداء اللغويّ المقبول، أو الأمثل، لو قورنت مع النظريّة الأمثليّة للّغة.

ومن ضمن نظريّة الأوتار، هناك الأضداد التي تسير على وتر واحد ذي شقّيْن، يدلّ على ثنائيّة المعنى، أي ثبوته وسَلْبِه. ويُبيّن أبو علي الفارسيّ ذلك في أنّ الأصل في الفعل الإثباتُ؛ فالفعل **قام** لإثبات **القيام**، والنّهوض. أما الفعل **أقام**، فتعني الإنشاء أي عكس **القيام** وسَلْبِه. واستعملت العرب ألفاظًا في السّلب ابتداءً مثل مادة **عجم** فهي للإبهام، ولتوضيح ذلك يعرضها في استعمالاتها المختلفة (ضيف، 1968، 257). فالجذر ع.ج.م. يفيد الإبهام ضد البيان، **فالعَجَم** هم الأجانب لأنهم لا يفصحون بالعربيّة. و**العجم** هو حبّ الزّيتون والتّمر، "**وعَجمة** الليل والرّمل" لما استبهم منه على سالكيه، أما إذا "**استعجمت** الكتاب"، فجاء بالمعنى العكس

في إبانته واستيضاحه (ابن جني، 2008، 76/3). ثم يبيّن أنّهم قد يُدْخِلون الهمزة على الفعل لإفادة السّلب مثل: "**أشكيت** الرّجل"، إذا زُلت له عما يشكوه، وقد يُضَعِّفون ثانيه لنفس الغاية مثل، **مرّضت** الرّجل، بمعنى داويته من **مرضه** حتى أزلته عنه، وقد يأتي السّلب بدون زيادة، كالفعل **قَذَيْت** بمعنى أزال **القذى** (ابن جني، 1952، 80/3).. ويؤكّد الصّالح (2009) أنّ الاشتراك بالتّضاد كالاشتراك في التناظر، أي أنّ التّضاد ضربٌ من المشترك اللفظي. فتداخل المعاني شكلٌ من أشكال اتّساع العربيّة التي نسي مستعملوها علاقة التّقابل فيها. والسّياق وحده، هو ما يعين على إيصال المعنى المقصود من اللفظ، ويشير إلى خاصيّة المعنى؛ إيجابيّة كانت أم سلبية (الصالح، 2009، 312).

ويستفيض ابن جني، نقلا عن أستاذه أبي علي الفارسي، في أمثلة كثيرة. ونراه ينقل عنه في باب "تعارض القياس والسّماع" أمثلة خالف فيها العرب القياس، مُبَيِّنًا أنّ ما استقرّ على لسانهم هو الأساس. فتقول العرب "**استنوق** الجمل، و**استتيست** الشّاة" ولا تقول **استعْوَذ** أو **استزود**، بل **استعاذ واستزاد**. وذلك لأن الفعلين الأوّلين تصرّف كلّ منهما من الاسم، وليس من فعل معتل (ابن جني، 1952، 119/1). أليست هذه الخياراتُ أمثلةً لنظريّة أمثليّة أوبتماليّة؟

ونجد القياس في التّناظرات اللغويّة، عندما يرجع اللغوي إلى ظاهرة لغويّة يقرنها بغيرها، في محاولة منه إيجاد الأداء الأمثل للتّركيب اللغوي. ولولا كفايته اللغويّة لما تمّ له ذلك التّركيب. ويجري القياس في اللغة مجرى الانتظام، ويوحّد طرق صياغة الألفاظ، وأحوال إعرابها، وصرفها. ولا يمكن ضبط وجوه القياس بسبب وجود الشّواذّ لذلك القياس. ولا يمكن التّنبّؤ بشكل تام بمدى المحاكاة لنموذج معيّن، ولا بصوره النّوعيّة. لذلك، فالقياس هو تشكيل كلمات جديدة على شاكلة كلمات قديمة (Yule, 2011, p. 60). إذ يعدّ من الظواهر اللغويّة المهمّة، الّتي توجب تتبّع أصول الألفاظ، وليس حالة من تغيّر اللغة، بل هو تتبّع لنظام تزامنيّ سينكروني وضعته اللغة، حيث يتجلّى النّشاط العام لوحدات اللغة، والغاية من استعمالها فيما بعد. فالقياس متعلّق باللسان، وبفعل الكلام. فيجب على كلّ ضرب من ضروب الكلام أن يكون

مسبوقًا بتمثيل قياسي في المخزون اللغوي المركّب من صِيَغ مبنيّة من عناصر الإبداع والتّكوين الخلّاقة الكامنة في اللغة (سوسير، 2006، 244).

ويشير ابن فارس في كتابه "الإتباع والمزاوجة"، الى الثّنائيات، التي يتّبع أحدها الآخر بهدف تثبيت معنى معيّن دون غيره. ومن ذلك قول العرب "اللهم أعِذْه من السّامّة والهامّة" أو "نسأل الله السّلامة والغنامة"، أو "رمى فأصمى"، عندما يصيب الهدف، وعكسها "رمى وأنمى" عندما يخطئ الهدف (ابن فارس أ.، 1947، 65). ولا تأتي هذه الثّنائيّة من غير تكرار لجرس الكلمة لتصل بكلالتها لأذن السّامع. فهذه قضيّة تداولية بحته.

ففرادة الإنسان تكمن في الطّبيعة التّأليفيّة، والتّوليديّة لفكره، ودماغه. فمجمل قدرات الإنسان التّوليديّة تشترك في استخدام الذّاكرة والانتباه والأنساق المُرَكّبة وأهمّها البناء السّلّمي التّكراري. وطريقة اللغة في الإنتاج الصّوتي المتعلّق بالبِنْيَة التصوّريّة، تجعل من اللغة ازدواجيّة متناظرة. وتعدّ الكلمات والمعاني اللبِنة الأساسيّة في هذا التّناظر.

الاشتقاق اللغوي

يعرّف دي سوسير الاشتقاق، بأنّه تركيب أو إلصاق تلك القطع الصغيرة على الجذر الأصلي للكلمة (Yule, 2011, p. 58). فهو الجزء التّطبيقي للمبادئ المتعلقة بظواهر اللسان، إن كانت تزامنيّة أم تواتريّة. ويصف دي سوسير الظّواهر اللسانيّة من خلال استخدام جميع الوسائل التي يوفّرها علم اللسان (سوسير، 2006، 279). وهناك الاشتقاق العاميّ الذي يتصرّف في الألفاظ تصرّفًا مشوّها في تأويل الصّيغ القديمة (سوسير، 2006، 258). وينزع الاشتقاق إلى تعقّب اللسان في الماضي لتفسيره، وهذا التعقّب يتمّ من خلال لغات أخرى مجاورة، وهو ما طبَّقه سوسير على ألفاظ فرنسيّة (سوسير، 2006، 278).

أما تشومسكي، فيؤكّد أنّ اللغة تستعمل المقاربة الاشتقاقيّة، أي الأخذ بالإجراء التّكراري حرفيًّا، وهذه خاصيّة مجرّدة للقدرة اللغويّة في تكوين العبارات خطوة بخطوة. فتُجمع السِّمات في وحدات مُعْجَميّة، وتُكَوّن موضوعات تركيبيّة من هذه الوحدات بوساطة عمليّات تكراريّة، مقدِّمَةً تمثيلا لصورة منطقيّة، ثم تُطبَّق التّهجئة، وعمليّات المكوَّن الصّوتي لتكوين صورة

صوتيّة. وتَعْتَبِر المقاربةُ التّمثيليّة الإجراءَ التّكراري مجرَّدَ مواضعةً لتعداد مجموعة من العبارات، التي يمكن تعويضها من غير فقدان لشيء. فالمُعجم والمكوّن الصّوتي يشكِّلان خزّانًا للاستثناءات والاختلافات النمطيّة والانزياحات الظّاهرة عن التّماثل التّقريبي الذي يُتَوقع رؤيته في الصّورة المنطقيّة (تشومسكي، 2013، 47).

ويؤكّد تشومسكي أنّه لا يمكن لجميع الأطفال اكتساب جميع مهارات اللغة حتى سنّ الخامسة، ولكنهم يمتلكون القدرة على بناء أنماط لغويّة تخصّ كلامهم. فلديهم طاقة داخليّة تُعَوِّضهم ما لم يأخذوه عن المحفِّز الخارجي وهو البيئة. لذلك، ينادي تشومسكي بالمنهج الطّبيعي الفطري nativistic approach الذي يشير إلى أنّ بعض المهارات والقدرات اللغويّة مبنيّة ومتشابكة في الدّماغ (Chomsky, 1986).

ونوّه تشومسكي، أنّ هناك أهميّة كبيرة للاقتصاد اللغوي، والكفاية اللغويّة في الاشتقاقات، والتّمثيلات لتحقيق نظام لغوي أمثليّ أوبتمالي. فيأتي الاشتقاق مقيّدًا بمعاييرَ اقتصاديّة مفضّلا مبانٍ بسيطة، وعلاقات لغويّة محليّة، لا تتمّ من غير كفاية لغويّة. وتفترض هذه المعايير عدم وجود خطوات أو رموز لا حاجة لها. ويقوم النّحو الكلي (Universal Grammar: UG) بتزويد نظام ثابت من الأسس والمعايير. فتكون النّتيجة النّهائية لـ UG هي تصوّر آليّة اللغة (Chomsky, 1996, p. 218). فالاقتصاد اللغوي يوجب مقارنة الاشتقاقات البديلة من مجموعة مُعطاة من الألفاظ، ويتمّ اختيار الاشتقاق الأكثر اقتصاديّة ليكون هو الاشتقاق الوحيد المسموح (Zwart, 1998). أما اعتبارات الاقتصاد، فتأتي من مبادئ أساسها الأناقة لا المنفعة، فتتَّسِم اللغة حينها بأنها مُحْكمة، ومثاليّة، وأوبتماليّة (جنكنز، 2016، 274). وللتأكيد هنا، يتمّ التّداول والتّواصل من خلال تطبيق النّظريّة الأمثليّة أداءً وكفايةً.

وفي عودة إلى فرديناند دي سوسير؛ ما يؤسّس اللسان، ويتحكّم في أداء وظيفته هو مجموع العلاقات المعتادة من تشابه واقتران للألفاظ على محور الاستبدال ذي التّرابط المتداعي أو على محور المركّب التّرتيبي. ومثال ذلك نظام الزّوائد من بوادئ ولواحق في اللغة الإنجليزية (the affixation system)، فالكلمة dangerous تتركّب من جزءين؛ الأوّل هو الجذر (danger)،

والثّاني مُوَحَّد (ous)، الذي يعني أنّ تلك الصّفة مفعمة بما تعني من معنى (Oxford University Press, n.d) وتكمن قيمة هذه الزّيادة في تفاعلها مع وحدة أكبر. وما يعطي هذه الزّيادة القيمة والمكانة في اللغة، كونها داخلة في سلسلة من الألفاظ المتداولة. وقد لا تحتوي بعض الكلمات المشابهة على هذا المقطع كزائدة أو لاحقة لأنها أصلية مثل jealous. فلا معنى لوجودها إلا بتأليفها. فالكلّ ضروريّ للأجزاء، والأجزاء ضروريّة للكلّ. وهذا المبدأ موجود في محاور المُركّبات التّرتيبيّة، ومتعلّق بوجود وحدات أكثر اتّساعًا في الدّماغ، ومؤلّفة من وحدات صغيرة، وتربطها علاقة متبادلة. فكلّ ما في اللسان يرجع إلى الفروق المميّزة، ويرجع إلى الزُّمَر المؤتلفة. وهذه الآليّة التي تتلعّب بالألفاظ، تتآزر ألفاظها من أجل إحداث فعل وردّ فعل (سوسير، 2006، 188). وقد نحيل هذه القضية إلى ثنائيّة التّناظر واللا تناظر.

وقد عمل ابن جني على تثبيت قانون الاشتقاق الأكبر، إذ لجأ إلى التّقاليب الستّة للأصل الثلاثيّ لأيّ كلمة، وجمعها هي ومشتقّاتها في معنى واحد أساسيّ. الأمر الذي لم يستهدِ إليه الخليل بن أحمد في معجم "العين" عند تقليب الأصل الثّلاثيّ للكلمة في صوره الستّ. وكان ابن جني دائم الإشارة إلى أبي عليّ الفارسيّ في استعانته بالتّقاليب، من غير أن يجعل لها اسمًا، أو تأصيلا، أو تطبيقًا. فقدّم ابن جني الأمثلة المختلفة، منها تقليبات ومشتقات الجذر **ك.ل.م.** التي أرجعها إلى معنى القوّة والشدّة، والجذر **ق.و.ل.** إلى معنى الإسراع والخفّة، والجذر **ج.ب.ر.** إلى معنى الشدّة والقوّة، والجذر **ق.س.و.** إلى معنى القوّة والاجتماع، كما أرجع تقليبات الجذر **س.ل.م.** إلى معنى الإصحاب والملاينة (ضيف، 1968، 275).

ويؤكّد ابن جني عُلويّة اللغة العربيّة، فواضع اللغة رأى بعينه مرّة واحدة وجوه جُمَلِها وتفاصيلها، فرفض ما شَنُع تأليفه، وعلم ما جَمُلَ تصريفه واللعب بأصوله، وعدل إلى أخفِّها وهو الثّلاثيّ (ابن جني، 2008، 109/1)، بل أنّ للغة غرض في استعمالها. فقد كان جرس الصّوت مضاهيًا لصوت الفعل، فقالت العرب **قضم** للأكل اليابس كالبقول وغيرها، و**خضم** للأكل الرّطب للخيار والقثاء على سبيل المشاكلة. فقد جعلت العرب الصّوت الأقوى للفعل الأقوى، والصّوت الأضعف للفعل الأضعف (ابن جني، 2008، 111/1).. وقد نصل إلى **قسم وقصم** لما في

الصّاد من قوة جرس على حرف السّين. **فالقسمة** تكون لشيء، أما **القَصمُ**، فهي للإنسان فنقول "**قصم** له ظهره".

أمّا بعلبكي (2020)، فيؤكّد أنّ عدد الجذور (الحروف) في الكلمة الواحدة متناه، وعدد الحروف في اللغة متناه، ولم يبق للخليل بن أحمد سوى أنْ يرى كيف يتصرّف في التقاليب (بعلبكي، 2020، 390). إلا أنّ الاشتقاق الأكبر يجعل المعنى في الكلمة الواحدة لا متناه، حيث تمسك المعاني برقاب تلك الحروف من خفّة إلى شدّة، ومن لين إلى صلابة. إذ صبّ النّحاة كلام العرب في قوالب منطقيّة تعكس صورًا صوتيّة حسيّة. فالأذن تنوب عن العقل في الرّفض والقبول، فتستسيغ اللغةَ نيابة عن العقل (الجابري، 2002، 91). وهذا مما يشير إلى أنّ اللغةَ غريزة تستوطن فكر الإنسان. وجاء كلام العرب على سجيّتهم، وسليقيّتهم، ولم يتخذوا للمعاني العامّة قوالب خاصة، بل النّحاة هم من وضعوا تلك القواعد والقوالب. فتعطي الصورة الصّوتيّة للمشتقات دلالتها المنطقيّة، وتوجد وظيفة فكريّة منطقيّة للقوالب والأبنية. ويتعلّم ويكتسب أبناء العربيّة المنطق والتفكير المنطقي مع لغتهم بطريقة فطريّة ضمنية (الجابري، 2002، 90).

إجمال

في هذا القسم من الدراسة، تمّ تقديم شبكة من المصطلحات، التي تشير إلى أنّ اللغة وليدة مَهَمّات متضافرة متساوقة بينها، في تجاوب تارة، وفي تنافر تارة أخرى، لتصل اللفظة قصيرة كانت، أم طويلة كاملة، أي بالحرف وبالكلمة وبالجملة، إلى السامع المتلقي. وقد بدت مساهمة العلوم الطبيعية في فهم الظواهر اللغويّة الموجودة في لغة الإنسان. مما يثبت الفكرة التي تنادي بغريزيّة اللغة لديه. فقد بدا كم هي البيئة خليقة بتشكيل اللغة عند الفرد، فاللغة عبارة عن سيرورة اجتماعية في مجتمع ما. وقد تكون المفردة اعتباطية أو لا. إلا أنّ العربيّة أثبتت من خلال نُحاتها، أنّ هناك جانبًا واسعًا منها، جاء متساوقًا مع المعنى ولم يكن اعتباطيًا.

وكان جليًّا أنّ اللسانيّات العربيّة، لم تختلف عن اللسانيّات الحديثة. فكما تحدّث سوسير عن اللغة والكلام واللسان، وفصّل البنية اللغويّة عن الأداء اللغوي، تحدّث سيبويه عن أهميّة

السّياق، وسيرورة المفردة في اللغة. وقدّم حديث النّاس في الأسواق ليشرح الظاهرة اللغويّة المتداولة. وإن دلّ على شيء، فهو أهميّة التّداوليّة في الكلام، من وجهة نظر سيبويه وغيره. وظهرت التّداوليّة جليّة في متن "الخصائص" عند ابن جني، خاصّة عندما قال؛ إنّ اللغة جاءت للتّعبير عن أغراض الناس. وقضيّة أخرى حديثة، يبدو أنّها أشغلت حيّزًا لا بأس فيه من اهتمام الحركة العربيّة الأدبيّة بموضوع "غريب اللغة" خلال عصور الاحتجاج للغة وتوثيقها في مصنّفات، ولا زال التاريخ يتحدّث عنها. وجاء اهتمامهم بتطوّر اللغة وتسلسل معانيها مزدوجًا بالناحيتين؛ الدياكرونيّة والسانكرونيّة. حتى أنّ دراسات ومؤلّفات الخليل بن أحمد، خاصّة مقدّمة كتاب "العين"، سبقت اللسانيّات الحديثة إلى ما يزيد عن الألفيّة من السنين.

وأشار تشومسكي إلى أنّ الإنسان يولد مع جهاز لغوي فطري، أو مُجمل لغويّ عام، الأمر الذي يتّفق مع اللسانيّات الأحيائيّة. ويؤكّد أهميّة الذّائقة اللغويّة التي كان قد أشار إليها اللغوي العربي القديم. وهذا ما يؤكّده ستيفن بنكر في موضوع الغريزة اللغويّة. وبكلمات تشومسكي، تحتاج الوراثة إلى البيئة لتفعيل اللغة التي تميّز تلك البيئة. أي أن اللغة طاقة كامنة لدى الإنسان، تحتاج للمجموعة، لتفعيل وشحذ تلك الطّاقة.

ويسهب جنكيز لايل في أنّ اللغة خاصيّة فطريّة بيولوجيّة لدى الإنسان، وليست مجرّد أداة مكتسبة، فهي قدرة داخليّة كجزء من الدّماغ، وليست مهارة اجتماعيّة. وخليق بنا التّذكير أنّ هذا الأمر لا يختلف عمّا يقوله القرآن، فالآيات القرآنيّة تؤكّد على أحيائيّة اللغة. فالله خلق القلب للإنسان ليعقل به، والعقل هو قلب، وفكر، ووجدان، وتأمّل، وعبرة. وخلق الله السّمع منوطًا بالنّطق، وتشير الآيات القرآنية إلى أهميّة السّمع والإبصار في اللغة. فقد ورد العقل، والقلب، والفؤاد، والسّمع، والبصر، كأساليب للتمييز بين الشّيء وضدّه، مثل الهداية، والضّلال، والكفر، والإيمان. وجاءت هذه الأساليب لتوجيه السّلوك البشري نحو الصلاح المجتمعي. أليس هذا هو حال اللغة في التواصل والتّداول في المجتمع بهدف علاقات اجتماعيّة سويّة!

فقد وثّق اللغويّ العربّ، ووضع أبنية لتوثيق المفردات بسياقاتها. حتى وإن أراد العربيّ ابتكار مفردات جديدة، يلزمها أنْ تتفق وتلك الأبنية التي وضعها اللُغَوِيّون الأوائل، الذين لاءموا بين القواعد والمقاييس ملاءمة دقيقة، باللجوء إلى ذائقتهم اللغويّة، وكأنّهم يستعملون قسطاسًا يشير إلى مدى صحّة هذه القواعد والمقاييس. لذلك فقد عدّوا القياس من أنبل وأطْوَع الوسائل في تقعيد اللغة. وعملوا على تبيان طاقة اللغة الكامنة من مرونة وإبداع، من خلال تقديم تعليلات لغويّة عقليّة لِتَقَبُّل ذلك الإبداع، أو رفضه. فقد استكرهت العرب بعض الألفاظ، واستحسنت بعضها الآخر، مقدّمةً لذلك تعاليل سماعيّة من ناحية، ومُسْتَنْبِطَةً لأحكامَ لغويّة من ناحية أخرى. وحريّ بالبحث التأكيد أنّ الخليل وسيبويه عملا على استنباط القواعد المطّردة الاستعمال، وعَمِلا على رفض الاستعمالات اللغويّة الخارجة عن الاستعمال الغالب المطّرد. وكان هدف التّعليل اللغويّ بداية، هو وصف العربيّة من خلال إظهار روعة تراكيب وألفاظ العربيّة، والبيان والحكمة في تعابيرها. ثمّ أنّه جاء لبرهنة ما في أساليب العربيّة من خصائص ومميزات. ولا بدّ من التنويه إلى أنّ الاستحكام والتّعليل في قضايا اللغة جاء من مبادئ أساسها الأناقة لا المنفعة، لكي تكون اللغة مُحْكمة ومثاليّة. فاهتمّت العرب بتخفيف وتيسير الكلام، أي بالاقتصاد اللغوي. فخير الكلام ما قلّ ودلّ، من غير إثقال، أو إرهاق للمتلقّي.

فيحيل جنكينز لايل طريقة اللغة في الإنتاج الصّوتي المتعلِّق بالبِنْيَة التّصوّريّة، من صوت ومعنى، إلى بِنْيَة الكواركات والازدواج التي بُني عليها العالَم الفيزيائي الطّبيعي، والأوتار وثنائيّات التّناظر وأعداد فيبوناتشي الكونيّة. فالوحدات الصّرفيّة النّحويّة عناصر أوليّة لبناء الجمل، تُدمَج وفق قواعد صارمة لتنتج تراكيب لغويّة مفهومة، كما يحدث في الجسيمات دون الذّرّيّة أي الكواركات. فتعمل اللغة ضمن نظام حسّاس، يتأثّر بالسّياق والاختلافات الدّقيقة، تمامًا مثل التّفاعلات في الفيزياء والكيمياء. ولا يمكن فصل الكواركات عن البِنية الّتي تظهر فيها، كذلك الأمر في عزل المعاني عن السّياق اللغويّ. فالطّلاقة، الضّخامة، النّصاعة، الكزازة، الخفوت، البحّة، الهتّه، اللين، الهشاشة، التي ذكرها الخليل، عبارة عن كواركات لغويّة غير

مرئيّة تشي بصفة المفردة قبل أن يعيَ السّامع أو المتلقي خصائص معناها ودلالتها. ويمكن اعتبار هذا، وحدات حمل المعنى المتناهية الصِّغر، التي تحدّث عنها تشومسكي.

فالمنطق في اللغة هو ما حفّز اللغويون لوضع قواعدها، فلم يتركوا أيّ ظاهرة لغويّة من غير مندوحة منطقيّة. فقد كان للكلمة العربيّة وقع وإيحاء على نفس سامعها، فكم بالحريّ بالذي يدرك جَرْسَها ويفهم كُنْهَها. فهذه مسميّات اللغة العربيّة من فعل وفاعل ومفعول، جاءت من صميم العمل، لغة وفِعلا. فالعمل أو الفعل أطلق عليه ذات الاسم لما له من خاصيّة من إحداثٍ للعمل. والفاعل، هو ذلك العامل على وقوع عمل ذلك الفعل، وما المفعول به سوى ذلك المسكين الذي وقعت عليه نتيجة العمل. وهذه المسميّات الأوليّة في اللغة، لم تأتِ عبثًا، بل جاءت وِفْقَ سببيّة عمليّة ذائقيّة تنمّ عن غرائزيّة لغويّة. وجاء المبتدأ أولا، لابتداء الجملة به، والخبر تاليًا ليخبر عن ذلك المبتدأ. وجدير بالذّكر أنّنا لا نجد هذه المسميّات (العاملة) في اللغة الانجليزيّة.

ولا بدّ من التأكيد أنّ اللغوي العربي، ما قدّم تعليلاته في الاستعمالات اللغويّة الأمثليّة بهدف إبراز جماليات اللغة العربيّة فحسب، بل بهدف الوصول إلى تواصل تداوليّ ناجح بين النّاطقين في اللغة. وهذا ما يدلّ على شجاعة اللغة العربيّة وحكمتها، وينمّ عن طاقة إبداعية كامنة في صُلْب اللغة. وقد بدا جليًّا واضحًا أنّ النّحو العربي لم يتأثّر بأي نحو آخر، ولم تأت تلك المصنّفات والمؤلّفات الأولى لولا نزول القرآن الكريم. فقد تعمّقت علوم اللغة العربيّة لكي تصل إلى مفاد علوم القرآن، التي كانوا قد شرعوا بدراستها. وحريّ باللغوي العربي أن يرجع للعلم الذي ظهر قبل القرآن في عقر بلادهم، ألا وهو الشّعر الذي غمر تلك البلاد، ولولا وجود البادية والطبيعة الصّحراويّة في الجزيرة العربيّة، لما وُلِد الشِّعر في نفس العربي وقلبه وعقله.

المصادر والمراجع

تفسير الطبري. **جامع البيان في تفسير القرآن**. تحقيق: محمود شاكر. دار المعارف. د. ت.

ابن جني، أبو الفتح عثمان. **الخصائص**. تحقيق: شريدة الشربيني. القاهرة: دار الحديث، 2008.

ابن جني، أبو الفتح عثمان. **الخصائص**. 3 مج. تحقيق: محمد علي النجار. مصر: المكتبة العلمية، 1952.

ابن فارس، أبو الحسين أحمد. **معجم مقاييس اللغة**. تحقيق: شهاب الدين أبو عمرو. بيروت: دار الفكر، 1994.

ابن فارس، أبو الحسين أحمد. **معجم مقاييس اللغة**. 6 ج. تحقيق: عبد السلام محمد هارون. ط.2. دار الفكر: د.ن.، 1979.

ابن فارس، أبو الحسين. **المجمل في اللغة**. تحقيق: زهير عبد المحسن سلطان. بيروت: مؤسسة الرسالة، 1986.

ابن فارس، أبو الحسين أحمد بن زكرياء. **الاتباع والمزاوجة**. تحقيق: كمال مصطفى. القاهرة: مكتبة الخانجي، 1947.

أبو الطيب، عبد الواحد بن علي اللغوي. **شجر الدر في تداخل الكلام بالمعاني المختلفة**. تحقيق: محمد عبد الجواد. ط.3. القاهرة: دار المعارف، 1985.

أبو علي الفارسي، الحسن بن أحمد. **التكملة**. تحقيق: كاظم بحر المرجان. بيروت: عالم الكتب، 1999.

أولمان، ستيفن. **دور الكلمة في اللغة**. ترجمة: كمال محمد بشر. مصر: مكتبة الشباب، 1975.

بنكر، ستيفن. **الغريزة اللغويّة: كيف يبدع العقل اللغة؟** ترجمة: حمزة بن قبلان المزيني. الرياض: دار المريخ، 2000.

بعلبكي، رمزي منير. **التراث المعجمي العربي من القرن الثاني حتى القرن الثاني عشر للهجرة**. بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2020.

بوقرة، نعمان. **المدارس اللسانية المعاصرة**. القاهرة. مكتبة الآداب، 2003.

تشومسكي، نعوم. **اللسانيّات التوليدية: من التفسير إلى ما وراء التفسير**. ترجمة: محمد الرحالي. لبنان: دار الكتاب الجديد المتحدة، 2013.

الجابري، محمد عابد. **تكوين العقل العربي**. ط.8. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربيّة، 2002.

جنكنز، لايل. **اللسانيّات الأحيائيّة: استكشاف أحيائيّة اللغة**. ترجمة: عبد الرّحمن بن حمد المنصور. الرياض: دار جامعة الملك سعود للنشر. 2016.

الزجّاجي، أبو القاسم. **الإيضاح في علل النّحو**. تحقيق: مازن المبارك. ط.5. د.م.: دار النّفائس، 1986.

رزايقية، محمود. "نظريّة الأفضلية اللغويّة: دراسة تأصيلية في التراث النّحوي العربي." **مجلة المعيار**، 26(1) (2022): 443-455. https://asjp.cerist.dz/en/article/177511

السامرّائي، فاضل. **الدراسات النّحوية واللغويّة عند الزمخشري**. عمان: دار عمّار، 2005.

سوسير، فرديناند. **محاضرات في علم اللسان العام**. المغرب: أفريقيا الشرق، 2006.

سيبويه، أبو بشر عمرو بن عثمان. **الكتاب**. 5 مج. تحقيق: عبد السلام محمد هارون وشرحه. ط.2. القاهرة: مكتبة الخانجي، 1982.

السيوطي، عبد الرحمن جلال الدين. **المزهر في علوم اللغة و أنواعها**. القاهرة: د.ن.، 1958.

الصالح، صبحي. **دراسات في فقه اللغة**. لبنان: دار العلم للملايين، 2009.

ضيف، شوقي. **المدارس النّحوية**. ط.7. القاهرة: دار المعارف، 1968.

العبيدي، شعبان عوض. **التعليل اللغوي في كتاب سيبويه**. ليبيا: منشورات قار يونس، 1999.

غاليم، محمد. **اللغة بين مَلَكات الذهن: بحث في الهندسة المعرفية**. الرباط: دار الكتاب الجديد المتحدة، 2021.

غاليم، محمد الحاج. "أين تشومسكي اليوم من مسألة تطور اللغة؟" **مجلة اللسانيّات العربيّة**، 12 (2021): 5-56.

الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد. **إحياء علوم الدين**. ط.1. ج.1 و3. لبنان: دار القلم، د.ت.

الفراهيدي، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد. **كتاب العين**. 8 ج. تحقيق: مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، د.ت.

مشبال، محمد. **البلاغة والأصول: دراسة في أسس التفكير البلاغي العربي**. المغرب: افريقيا الشرق، 2007.

نصار، حسين. **المعجم العربي: نشأته وتطوره**. ط.4. مصر: دار مصر للطباعة، 1988.

النوري، محمد جواد. **التفكير الصوتي عند سيبويه في ضوء علم اللغة الحديث**. لبنان: دار الكتب العلمية، 2018.

المراجع الإنجليزية:

Baalbaki, Ramzi. *The Arabic Lexicographical Tradition: from the 2nd/8th to the 12th/18th Century*. Leiden: Brill, 2014.

Boudelaa, Sami. "Psycholinguistics." In *The Oxford Handbook: Arabic Linguistics*. Jonathan Owens (ed). USA: Oxford University Press, 2013.

Chomsky, N. "Three factors in language design." *Linguistic Inquiry*, 36(1) (2005): 1-22. Retrieved from https://www.mitpressjournals.org/doi/10.1162/00243

Chomsky, N. *The minimalist program*. Cambridge: MIT Press, 1996.

Chomsky, N. *Knowledge of language: Its nature, origin, and use*. Praeger: s.n.: 1986.

Mufwene, S. S., Coupe, C., & Pellegrino, F. *Complexity in language: Developmental and evolutionary perspectives*. S.l.: Cambridge University Press, 2017.

Owens, Jonathan. *A Linguistic History of Arabic*. New York: Oxford University Press Inc, 2006.

Oxford University Press. dangerous. In *Oxford Dictionary*. Retrieved July 28th 2025, from https://www.oxforddictionary.com

Pinker, S., & Bloom, P. Natural language and natural selection. *Behavioral and Brain Sciences, 13*(4) (1990): 707-784.

Yule, G. *The study of language*. 4th ed. S.l.: Cambridge University Press, 2011.

Zwart, J.-W. Review article: The minimalist program. *Journal of Linguistics, 34*(1) (1998): 213-226. https://doi.org/10.1017/S0022226797006889